http://nj180degree.com

ليو تولستوي





دمشق - مجمع فيكتوريا التجاري - تلفون : ٢٢٣٢٣٢٦ - ص.ب : ٤٣٠٦
بيروت - شارع مار الياس - تلفون ٣٦٣٤٩٤ - ص.ب ١١/٣٤٢٦

ت د ل

- ١ -

القرية

هي قرية من قرى بلاد القوقاز اسمها قرية نوفوميلينسكايا . والى هذه القرية وصلت كتيبتان من مشاة الجيش الروسي في رحلة من رحلات التدريب . وعلى الفور خلع الجنود السروج عن جيادهم وصفت العربات الضخمة في ساحة القرية . واغتصب الطباخون الحطب من البيوت المجاورة ثم حفروا في الساحة حفرة وأوقدوا النار لطهو الطعام . وشرع العرفاء ينادون على الجنود لاثبات حضورهم . أما الامناء فراحوا يتجولون في الطرقات ويرشدون الى المواضع التي تدق فيها الخيام . وكان الجميع على الجملة يتصرفون بلا حرج كأنهم في مسقط رأسهم وليسوا طارئين على شعب يختلف عنهم في كثير من الامور وان كان داخلا ضمن حدود التبعية العظمى لقيصر موسكو .

ولكن هل ينظر القوقازيون اهل تلك القرية الى نزول الجنود الروس في بلدهم بعين الرضا والارتياح ؟



ان هذا السؤال لم يخطر ببال السادة الاماثل جنـــود الكتيبتين • فليست هذه اول قرية مـــن قرى الامبراطورية يحلون بها غير مبالين بمشاعر اهلها • وانما المهم عندهم انهم على أثر الانتهاء مـــن التثبت من وجود الجنود انفرط عقدهم وسمح لهـم بالاخلاد الى الراحـة • وكانت الرحلة الشاقة قد هـــدت قواهم ، وكستهم طبقة كثيفة مـــن التراب •

وانطلق الجنود فـــي طرقات القرية يمرحون ويهرجون ، كأنهـــم خميس من الجراد يوشك ان يحط على حقل مثمر • وكان هـــذا المرح والتهريج أكبر دليل على عدم مبالاتهم بشعور اهل القرية • فها هـــم يدخلون بيوت الناس اعتباطا ، مثنى وثلاث ، ويلقون بحقائبهم علـــى الارض ويشرعون في ترتيب حوائجهم ويمازحـــون الاطفال والنساء ، كأنهم بين ذويهم !

وبعد ان استقر كل جندي في المنزل الذي قادته اليه الصدفة وغسل عن وجهه آثار الرحلة ، هرعوا جميعا الى قدور الطعام الكبيرة فـــي ساحة القرية وأحاطوا بالنيران التي ارتفع دخانهـــا الى عنان السماء • وراحوا يتبادلون النكات والسخرية بأهل القرية انتظارا لنضج الطعام ، لان طريقة معيشتهم وطباعهم تختلف اختلافا شاسعا عن معيشة الروس وطباعهم • وارتفعت من كثير من البيوت صرخات النساء الحانقات لمـــا يبديه الجنود الروس من مجانة وسلب واستهانة بحقوق الملكية وحرمة المساكن الخاصة • ولما رأى الاطفال أمهاتهم حانقات صارخات ، استولى عليهم الذعر وتعلقوا بأذيالهن ، او قبعوا في الاركان يرقبون حركـــات الجند بفضول وتوجس فهذه اول مرة ينزل فيها الجنود الروس بهـــذه القرية القوقازية •

أما ذوو السن من القوقازيين فكانوا يخرجون من البيوت صامتين

واجمين ، ويفترشون مصاطبهم أمام عتبات أكواخهم ، وينظرون الى حركات الجنود نظرة من لا يعنيه من ذلك كله شيء .

وكانت هاتان الكتيبتان الروسيتان تضمان من بين المشاة شابا روسيا نبيلا ثريا متوقد الحس ، قلق الذهن والنفس ، كان قد التحق بهذه الفرقة برتبة طالب في المدرسة الحربية منذ ثلاثة اشهر . وقد اختار لنفسه بيتا من أفضل بيوت القرية . وهذا الشاب هو أولينين بطل قصتنا . اما صاحب البيت فكان يحمل رتبة الضابط الشرفية في الجيش الروسي ، وهو حامل العلم ايليا فاسيليفتش . وزوجته هي السيدة اولينكا . والرجل من أغنى اهل القرية وأكثرهم بخلا .

وقال فانيوشا (الجندي المراسلة) لاولينين وهو يلهث من التعب :

ــ ها قد وصلنا يا سيدي . والله أعلم كيف ستكون معيشتنا هنا !

فأجابه اولينين وهو يداعب جواده الاصيل :

ــ ولماذا تقلق ؟ سنعيش كما يعيش الناس !

ولو نظرنا الى اولينين لوجدناه ذا شارب خفيف ولحية قصيرة ، متورد الوجنتين ، كساه السفر الطويل سمرة خفيفة . وقد ارتدى زيا جركسيا ابيض اللون ، لطخته الرحلة بالاوساخ ، وفوق كتفه بندقية . وكان واضحا انه لا يحسن ارتداء ذلك الزي ، ولا يبدو فيه من اهل البلاد . فكأنه ممثل في ثياب التمثيل .

والتفت فانيوشا بشعره الاحمر المشعث الى اولينين صائحا :

ــ انت متفائل دائما . ولكن جرب ان تتحدث الى احد الاهالي وأراهنك انك لن تظفر منهم بكلمة ، لانهم يعرضون عن الغرباء دائما ، انهم ينفرون من الروس ، ويختلفون عنهم في كل شيء . سنجد هنا المتاعب التي لا حد لها . فما العمل ؟

ــ الامر بسيط . ابسط المشكلة امام شيخ القرية .

فحملق فانيوشا ، وقال بغيظ :

ـ شيخ القرية ؟ وكيف أعثر عليه ؟ من يدلني عليه ؟

فابتسم أولينين ووضع يديه على كتفي فانيوشا خادمه الامين وقال :

ـ خبرني من الذي أثار غضبك على هذه الصورة ؟

ـ تلك العجوز التي لها سحنة العفاريت ! انها امرأة سيئة الطبع لا يمكن معاشرتها ، ومن المستحيل ان نعيش هنا • انهم اشد عداوة للروس من التتار انفسهم • ومع ذلك يزعمون انهم مسيحيون •

وابتسم اولينين وقال وهو يتطلع الى البيت :

ـ أليس هذا البيت شبيها ببيوت الخدم في وطننا ؟

فهز فانيوشا كتفيه وقال :

ـ لك ان تضحك يا ديمتري اندريفتش كما تشاء • ولكنك سترى بعد قليل مع اي قوم سوف نعيش هنا !

ـ هون عليك يا فانيوشا • واطمئن • فسأدخل بنفسي وأسوي جميع المسائل مع اهل الدار • وسترى بعد ذلك ان الحياة هنا ستكون حافلة بالمرح والنعيم • وأرجوك ان تترك الغضب •

وهز فانيوشا كتفيه وتعقب سيده بنظرة استهانة • وكان فانيوشا قد التحق بخدمة سيده وهو في الحادية عشرة • وكان اولينين يومئذ في نفس سنه فتعلق به • وفي سن الخامسة عشرة لقنه الكتابة والقراءة • بل وعلمه طرفا من اللغة الفرنسية • فصار فانيوشا شديد الاعتداد بتلك المزية • وصار «يرطن» بالفرنسية اذا استولى عليه السرور ، ثم يضحك مزهوا بنفسه •

وصعد اولينين سلم المدخل ثم دفع باب الدار فانفتح • ووثبت ماريانكا من مكانها مروعة • ولم يكن عليها وقتئذ الا قميص وردي اللون ، فهذا شأن نساء القوقاز طول النهار ما دمن داخل بيوتهن •

والتصقتماريانكا بالحائط كمن تريد ان تتوارى في داخله ، ثم غطت وجهها بكمها الفضفاض •

ولما لمح اولينين في عتمة المدخل شبح الفتاة القوقازية بقدها المشوق، راح ينظر في لهفة الى ذلك الجسد العذري الناضر ينم عنه هذا القميص الشفاف ، وملأ عينيه من هاتين العينين السوداوين الدعجاوين ، اللتين تحملقان فيه في فزع طفلي ، كأنها غزال اخذ على غرة • ولكن هـــذه النظرة لم تكن لتخلو من تطلع ساذج وخفر مطبوع •

أما السيدة أولينكا فكانت منصرفة الى الكنس في قميص كقميص ابنتها ، وكان ظهرها اليه فلم تره • فقال يخاطبها :

ــ طاب يومك يا أماه ! اتيت لنتفق بصدد سكناي لديكم •

فالتفتت اليه المرأة من غير ان تقف ، ورمقته بنظرة شذراء :

ــ كيف دخلت هنا ؟ سأعلمك كيف تستهين بنا !

وأصيب أولينين بصدمة من هذا الرد الساخن لتحيته • اذ كان يعتقد ان القوم سيستقبلون الجيش الباسل عند وصوله من رحلته الطويلـــة الشاقة بالتهليل والترحاب • ومع ذلك غالب حنقـــه وحاول ان يشرح للسيدة أولينكا انه جاء لدفع اجرة المسكن ، ولكنها صاحت :

ــ مسكين ؟ ومن الذي يريد اسكان قرموط مثلك ؟ انتظر الى ان يعود رب البيت فيدلك على المكان الذي ستنزل فيه • أما نقودك القذرة فلا حاجة لي بها ! يتكلم عن النقود كأننا لم نر نقودا من قبل ! أصابك الطاعون ايها الوافد وخرق الرصاص بطنك !

فقال أولينين يحدث نفسه :

ــ صدق والله فانيوشا ! ان التتار افضل مـــن هؤلاء القوقازيين !

وخرج من البيت يتعثر في لعنات السيدة أولينكا • وفي هذه اللحظـــة مرقت بجواره ماريانكا وقد تنقبت «بيشمك» ابيض وانطلقت تنزل السلم

وقدماها الحافيتان تطرقعان على الدرج • ولما تجاوزته قليلا استدارت وألقت عليه نظرة خاطفة فرأى الضحك في عينيها الجميلتين ، ثم اختفت وراء الكوخ •

وخفق قلبه لرشاقة جسمها الغض وهي تجري كالحيوان الوحشي فأتبعها بنظره ، وتلاشت من ذهنه جميع مصاعب المسكن •

وفطن فانيوشا الى اهتمامه بالفتاة فقال :

ــ انها متوحشة مثل جميع مواطنيها • ما أشبهها بالمهرة الوحشية !

ولما رأى وجنتي أولينين تتضرجان بالاحمرار انفجر ضاحكا وقال بالفرنسية الركيكة :

ــ فتش عن المرأة !

وقبل حلول المساء عاد حامل العلم من حيث كان يصيد السمك عند النهر • وأخبرته زوجته ان الطالب بالمدرسة الحربية قد اختار بيته لاقامته وأراد ان يدفع الاجر • فهدأ ايليا فاسيليفتش من ثورة زوجته ، وأبدى استعدادا حسنا لتقديم جميع التسهيلات •

وانتقل اهل الدار الى البيت الشتوي تاركين الكوخ الصيفي لاقامة اولينين ، في مقابل ثلاثة روبلات في الشهر • وبعد ان استقر اولينين في الكوخ اصاب شيئا من الطعام ثم نام قليلا • ولما استيقظ أشعل سيجارة وجلس بجوار النافذة المطلة على الطريق ليستنشق النسيم الرقيق • وكانت السكينة مستولية على القرية كلها ، لأن الجنود كانوا قد تعبوا من التهريج فخفتت أصواتهم •

وبين الحين والحين كان يصل الى سمعه من مكان قصي فيما وراء نهر ترك صوت طلقات نارية متقطعة • فشعر أولينين بسعادة عظيمة لهذا الاستقرار والهدوء ، بعد ان قضى في خيام المعسكرات المضروبة بالعزاء زهاء ثلاثة اشهر •

بل انه شعر بوجهه وقد غدا بضا ناضرا بعد ان غسله ، ودب النشاط في بنيته القوية على اثر الاستحمام • بل ان النشاط والصفاء شملا ذهنه كذلك • وأخذت تراوده ذكريات صباه في موسكو • فبدت امام عينيه وكأنها صفحة طويت منذ أمد بعيد ، ولم يعد امرها يعنيه في شيء • وانما المهم عنده هو حياته الجديدة هذه ، وقد دخل فـي زمرة الجنود القوقازيين • فلا هدف له اليوم الا كسب المجد بهذه الصفة ، واحتلال مكانة مرموقة في قلوب اهل تلك البيئة الجديدة • ثم راح يقلب عينيه في مسكنه الجديد الصغير مفتونا بهذا الاطار المتواضع الهادىء البسيط الذي يحيط بحياته • ويسني النفس بأنواع من المسرات البريئة وسط هذه الطبيعة المهيبة التي تكتنفها الجبال •

وشهد أولينين اطفال القرية يتجمعون في الطريق للسمر الليلي • ثم رآهم يهرجون ويتماجنون بشيخ يحمل بندقية وقد علق في حزامه عددا من الدراج المقتول • والفتيان يصيحون بالشيخ :

ــ العم بيروشكا ! سيبيع خنجره ليشرب كأسا !

وسقط الضوء من النافذة على وجه الشيخ ، فاذا وجه معبر يدل على الذكاء وحضور الذهن ، وبنية قوية • فصاح أولينين :

ــ اسمع يا عم !

فنظر الشيخ اليه ووقف في مكانه ، ثم رفع قبعته الصغيرة عن رأسه الحليق قائلا :

ــ طابت ليلتك ايها الصديق الهمام !

ــ طابت ليلتك • ما الذي جعلهم يتماجنون بك يا عم ؟

فاقترب الشيخ من النافذة وقال بصوت موسيقي متناسق وقور :

ــ لا عليهم ان يتندروا بشيخ مسن • فهذا شيء أولع به الصغار من قديم • وأنا لا أضيق بهذا العبث • بل استطيبه •

وتردد الشيخ برهة ثم استطرد :

ـ أأنت قائد الحامية ؟

فضحك أولينين وقال :

ـ لست قائد الجند طبعا • انا طالب في المدرسة الحربية • ولكن اخبرني من اين اصطدت هذه الطيور ؟

فاستدار الشيخ وأولاه ظهره العريض كي يريه الطيور الثلاثة التي ربط رؤوسها بحزامه فلوثت سترته بالدم ، وقال :

ـ صدتها من الغابة • ولكن ألم تر الدراج من قبل ؟ خذ اذن اثنتين منها !

ودفع اليه من خلال النافذة بدراجتين ثم سأله :

ـ أأنت من هواة الصيد ايضا ؟

ـ نعم • وقد صدت اربع دراجات خلال الحملة قبل حضورنا الى هنا • اني احب الصيد جدا •

ـ عظيم ! والشراب ؟ هل تشرب خمرنا الوطنية «الجكير» ؟

ـ ولم لا أشربها ؟ اني ممن يستطيبون الشراب !

فأشرق وجه العم يروشكا وقال :

ـ عظيم ! انت فيما ارى شاب همام ظريف • وسنكون باذن الله صديقين حميمين !

فقال أولينين :

ـ تفضل بالدخول لنشرب معا كأسا من الجكير •

ـ سأفعل • ولكن خذ الدراجتين اولا •

وبدا على سحنة الشيخ ان أولينين وقع من نفسه موقعا حسنا ، وقدر ان هذا الطالب الكريم سيغدق عليه الكثير من الشراب بلا ثمن ، فلن تذهب الدراجتان سدى •

ولم يلبث العم بيروشكا ان ظهر على عتبة الباب • وعندئذ تحقق لدى أولينين مبلغ ضخامة جسم هذا الشيخ العملاق • وتبين الاخاديد العميقة التي حفرتها الايام والتجارب في وجهه المحمر ذي اللحية الناصعة البياض • ولفت نظره ان عضلات ساقيه وذراعيه وكتفيه كبيرة بصورة غير مألوفة في المسنين من الرجال • اما رقبته فكانت غليظة ذات طيات كأنها رقبة ثور • والندوب تملأ رأسه ويديه • وخطواته سريعة خفيفة •

وخلع الشيخ بندقيته ووضعها في ركن من الحجرة • ثم جال ببصره في أرجائها كأنه يثمن ما بها من أثاث ومتاع • وفاحت منه وهو يتحرك في الحجرة رائحة قوية تختلط فيها روائح الفودكا والجكير والبارود والدم المتجمد •

واقترب العم بيروشكا من أولينين ، ومد اليه يده الكبيرة السمراء :

ــ كوشكيلدي !

وهي كلمة في لغة اهل تلك المنطقة معناها السلام عليكم • فقال له أولينين وهو يصافحه :

ــ كوشكيلدي !

فضحك العم بيروشكا وصاح به :

ــ ما أجهلك ! ان الرد الصحيح هو «حفظك الله» • ولكنك ستتعلم كل شيء بمرور الوقت • فلست اول فتى ظريف دربته يدي • فمنذ مدة اقام بهذه القرية احد مواطنيك الروس • وكان اسمه ايليا موسييتش • وكان صديقا حميما لي ، فجعلت منة فتى بمعنى الكلمة • جعلت منه سكيرا وساطيا وصيادا يا له من صياد !

فازداد اهتمام أولينين بذلك الشيخ الطريف وسأله :

ــ وأنا ماذا تنوي ان تعلمني ؟

ــ سأصحبك لقنص الحيوانات وصيد السمك • وان هفت نفسك

الى فتاة جئتك باحداهن ! لقد جبلت على خدمة اصدقائي من جميع الوجوه . ولكني متعب . فلأجلس . والآن ألا تأمر لنا بشيء من الشراب ؟ أليس عندك جندي مراسلة ؟

وتحول عن أولينين وصاح بأعلى صوته :

ــ يا ايفان يا ايفان !

ــ من هذا الذي تناديه ؟

ــ المراسلة ! كل الجنود الروس اسمهم ايفان !

ــ صدقت والله ! اسمه ايفان ولكني أدلله وأدعوه فانيوشا . يا فانيوشا ! يا فانيوشا ! الينا بشيء من الجكير من عند ربة البيت .

وهنا تدخل الشيخ في الحديث قائلا لفانيوشا :

ــ اسمع يا صاح ! قل لها ان تعطيك جكيرا من الدن الذي فتحوه اخيرا . فالكل يعلمون ان في هذا البيت أحسن جكير في القرية . ولكن اياك ان تعطيها اكثر من ثلاثين كوبكا . فهذه العجوز طماعة !

وخفض بيروشكا صوته كمن يسر الى أولينين بشيء خطير :

ــ ان القوم هاهنا يبغضونكم معشر الروس ويرونكم أسوأ معدنا من التتار انفسهم . اما انا فلا أفرق بين روسي وقوقازي . ولهذا ينفر مني قومي . ولكني لا أكترث بذلك . فأنا اخو مرح ، احب جميع الناس بلا تفريق ! هكذا انا يا صديقي .

وربت الشيخ القوقازي على كتف أولينين في مودة سابغة .

- ٢ -

ما أجملها

أما فانيوشا فكان في نوبة من نوبات مرحه وانشراح صدره لانه كان قد فرغ من ترتيب البيت واستجم وحلق ذقنه عند حلاق الكتيبة وأبدل ثيابه . فلما دخل الحجرة على أولينين وبيروشكا جعل ينظر الى الشيخ نظرة تطلع وحذر لا نظرة عطف . فكأنه امام نوع من الحيوانات لم يشهد له مثيلا من قبل .

ونقل فانيوشا بصره من سحنة الشيخ الى أرض الغرفة التي كان قد تعب في تنظيفها منذ هنيهة ، وتتبع قدمي بيروشكا الموحلتين اللتين تركتا آثارهما واضحة على الارض ، وهز رأسه ثم اتجه الى احدى الارائك ، فأخرج من تحتها زجاجتين فارغتين ، واتجه الى البيت الشتوي ، وقد وطن النفس على ان يبدو في أوج الظرف والتهذيب ، وقال :

ـ طابت ليلتكم يا اهل المروءة ! أرسلني سيدي لاحصل منكم على شيء من الجكير . فهل تتفضلون علينا بشيء منه يا اهل المروءة ؟

ولم ترد عليه المرأة • اما الفتاة فالتفتت الى فانيوشا في صمت وكانت واقفة امام مرآة صغيرة تصلح منديلها الذي تعصب بـه رأسها فأدرك فانيوشا ما يخامرهما ؛ وهز النقود في جيبه فصدر عنها صليل نحاسي • وقــال :

ــ سأدفع لكم ثمن ما ستعطوننا ايها الفضلاء • وهل جزاء الاكرام الا الاكرام ؟

فقاطعته السيدة اولينكا قائلة :

ــ كم تريد ؟

ــ لترا •

فقالت السيدة أولينكا لابنتها :

ــ احضري له شيئا من الجكير يا ابنتي • من ذلك الدن الذي فتحناه اخيرا يا عزيزتي •

فأخذت ماريانكا المفتاح وخرجت مع فانيوشا متجهــة الى القبو في فناء الدار • ومرت في طريقها بالنافذة • فسأل أولينين يروشكا وهــو يشير اليها باهتمام :

ــ من هذه الفتاة يا عم ؟

فغمز الشيخ بعينيه ولكز أولينين بمرفقه وصاح به :

ــ لا تتعجل ! اصبر قليلا •••

ثم قفز الشيخ كالعفريت وأطل من النافذة وصاح كالثور :

ــ يا عزيزتي ماريانكا • ألا تحبين عمك يا حبيبتي ؟

ولم تلتفت الفتاة الى كلامه ، واكتفت بأن رمقته بعينيها السوداوين في نظرة بطيئة باردة وهي منطلقة في طريقها فصاح :

ــ أحبيني يا ماريانكا تكتب لك السعادة !

ثم عاد يغمز أولينين بعينيه وقال :

ـ سترى انني أصلح لكل شيء • فأنا خفيف الدم ذو حيلة • ولكن أليست هذه الفتاة في جمال الملائكة ؟

فهتف أولينين بحماسة :

ـ ما أحملها ! اطلب منها ان تدخل !

فهز الشيخ رأسه وقال :

ـ الا هذا ! هذه الفتاة ستتزوج شابا قوقازيا هماما باسلا اسمه لوكاشكا • قتل رجلا من الابركة منذ ايام قلائل • ولكن لا تقلق يا عزيزي الشاب ياذا الدماء الساخنة ! سأدبر لك فتاة اجمل منها • سأختارها لك تميس في الديباج والحلي كالشمس الطالعة • صدقني فأنا رجل فعال لما اقول • سآتيك بجوهرة مصونة ودرة مكنونة !

فضحك أولينين مرتاعا وقال :

ـ أفي هذه السن وتقول مثل هذا الكلام ؟ يا للخطيئة !

فحملق الشيخ في أولينين باستنكار :

ـ خطيئة ؟ وما وجه الخطيئة في هذا ؟ أخطيئة هي ان يملأ الفتى عينيه من فتاة حسناء ؟ او يداعبها ؟ او يحبها ؟ أهذا هو حالكم في بلادكم البعيدة ؟ ما أتعسكم ! هذه هي لذة الحياة كلها وهي ايضا فطرة الله التي فطر عليها الخلق جميعا • الله خلقك يا فتى ، والله هو الذي خلق الفتاة ايضا ، وركب في كل منكما الشوق الى صاحبه • لهذا خلق الله الفتاة ، اية فتاة ، كي تشيع الحبور والمسرات في قلب الفتى • هذا هو ما علمتنيه الحياة ايها الصديق !

وكانت ماريانكا قد اجتازت الفناء ودخلت القبو الحافل بالدنان وتوجهت الى دن من بينها • وظل فانيوشا واقفا عند الباب ينظر اليها في الضوء الخافت ويعجب كيف ان الفتيات في هذا البلد لا يرتدين الا قميصا ، وزينتهن قلادة من النقود الفضية • فهذا شيء مباين كل المباينة

لما ألفه الروس من فتياتهم .

وفجأة صاحت به الفتاة :

ــ لماذا تقف بيني وبين الضوء ايها العفريت ؟ ما الذي سمرك في مكانك ؟ أعطني الزجاجة .

وأعطاها الزجاجة فملأتها بالخمر ، فلما مد اليها يده بالنقود دفعتها بعيدا عنها وقالت :

ــ اعطها لأمي !

ولم يرتبك فانيوشا بل قال في تودد :

ــ لماذا تبالغين في الغلظة يا عزيزتي ؟

فضحكت الفتاة وقالت :

ــ وأنت ؟ هل انت تسيل رقة ودماثة ؟

فقال فانيوشا بحماسة :

ــ انا وسيدي من اكثر اهل الارض لين جانب ودماثة خلق . حتى ان كل من نزلنا بدورهم كانوا يتعلقون بنا لحميد سجايانا ثم لا تنسي يا عزيزتي ان سيدي ليس روسيا عاديا . انه من النبلاء .

وحملقت فيه الفتاة وهو يتكلم ثم سألته بهدوء :

ــ وهل سيدك متزوج ؟

فانتهز فانيوشا هذه الفرصة وطفق يزودها بالمعلومات عن سيده في اهتمام .

ــ سيدي ؟ انه لم يزل حديث السن . والسادة الأشراف لا يتزوجون في باكورة شبابهم .

فشهقت ماريانكا وقالت وهي تدق صدرها :

ــ حديث السن ؟! أثور كبير الجثة مثله أصغر من ان يتزوج ؟... وهل هو قائدكم كلكم معشر الجنود ، هذا النبيل ؟

فقال فانيوشا مباهيا بسيده :

ــ سيدي لم يصبح ضابطا بعد • انه طالب بالمدرسة الحربية • هذا صحيح ، ولكنه أرفع مكانة من قائد جيش كامل • ان الجنرال يعرفه معرفة صداقة • ومولانا القيصر يعرفه جيدا • ووالده كان عضوا في مجلس الشيوخ • وله أملاك واسعة تدر عليه مالا بالقناطير • اننا لسنا كالمتسولين من الضباط العاديين •

وقاطعته الفتاة قائلة :

ــ هيا كي أغلق القبو !

فأسرع فانيوشا بالخمر الى أولينين وقال له بالفرنسية :

ــ الفتاة بارعة الجمال !

واستخفه الطرب فقهقه ببلاهة ثم غادر الحجرة •

***

دوى النفير في ساحة القرية ايذانا بالغروب ، وامتلأت المسالك المفضية الى القرية بالقطعان العائدة من المراعي ، وخوارها وثغائها يرتفعان من جميع الارجاء ، والغبار الذي تثيره بحوافرها يملأ الجو وتنعكس عليه أشعة الشمس الجانحة للمغيب فيبدو ذهبي اللون •

ولم تلبث الشمس ان غابت وراء المرتفعات البعيدة التي تجلل قممها عمائم بيضاء من الجليد ، وأخذت زرقة الغسق تخيم على كل شيء ، والنجوم الصغيرة الثاقبة تلوح في الآفاق البعيدة فوق الخمائل التي واراها الظلام فأضفت ظلالها على المساء مزيدا من الحلكة •

وشيئا فشيئا خفتت الاصوات ، وعكفت النساء على ادخال القطعان الى حظائرها ، وتقديم العلف اليها ، ثم أخذن في حلب الاناث ، حتى اذا فرغن من هذه المهمة اليومية غادرن الحظائر والبيوت لالتماس النسمات

على مفارق الطرقات ، وهن يقزقزن لب عباد الشمس بأسنانهن الصغيرة الحادة البيضاء ، ويتبادلن أطرافا من الاحاديث شأن القرويات في جميع أرجاء الارض ..

وكانت ماريانكا قد انتهت من حلب ما تحت يدها من بقر وجاموس ، وخرجت لتنضم الى احدى تلك الجماعات . وكانت هذه الجماعة التي انضمت اليها تضم فريقا من النساء والفتيات ، وبينهن ايضا رجل مسن. وكان الحديث يدور حول ذلك الرجل من الابركة الذي لقي حتفه . وكان القوقازي الشيخ يروي للنساء قصة مصرعه ، وهن يستوضحنه ، ثم قالت احدى النساء معلقة على ما سمعت :

ــ لا بد ان البطل سيحصل على مكافأة سنية !

فقال القوقازي الشيخ :

ــ ليس في هذا شك . بل سمعت انهم سينعمون عليه ايضا بوسام . مع ان موسييف حاول ان يغتصب منه ذلك الفخر بانتزاع بندقيته منه الا ان القادة في كوزليار سمعوا بحقيقه ما حدث .

ــ موسييف شخص حقير .

وانبرت احدى الفتيات تقول فجأة :

ــ سمعت ان لوكاشكا عاد من النطاق الى القرية .

ــ ولكن احدا في القرية لم يره .

ــ ذلك انه ذهب مع نازركا زميله الى حانة تلك المرأة السيئة السمعة يانكا . وبلغني انهما شربا نصف دلو من الخمر هناك .

فقالت احدى النساء :

ــ لا جناح عليه . فهو فتى ذكي الفؤاد لا يعجزه شيء . ثم مـــا أرجح عقله . ولكن الشيء من معدنه لا يستغرب . فوالده كرياكو كان على هذه الصورة . وقد اهتزت القرية لمصرعه ..

وقاطعتها امرأة تشير الى الطريق :

ـ ها هماذان قادمان • ومعهما زميلهما بيرجوشوف • انه وغد سكير لا يفلت فرصة نادرة كهذه للامتلاء بالخمر !

وكان الفرسان الثلاثة قد تجرعوا نصف دلو من الفودكا الثقيلة في حانة يانكا • ولذا كانت وجوههم محتقنة بالدماء • وكان بيرجوشوف العجوز يترنح بين صاحبيه ويعابثهما ويلكزهما في صدريهما • فلما اقترب الثلاثة من الفتيات صاح العجوز :

ـ لماذا تلذن بالصمت ؟ هيا الى الغناء تحية ومشاركة لنا في المرح•

فقالت احدى النساء متخابثة :

ـ ولماذا نغني نحن ؟ هل نحن في يوم عيد ؟ انتم سكرتم فغنوا !

فانفجر الشيخ ضاحكا وقد استخفه الطرب ولكز نازركا في صدره :

ـ فكرة وجيهة يا ولد ؟ خليق بك ان تغني ! أخجلان انت من صوتك ؟ سأبدأ انا في الغناء • فصوتي جميل !

فنظر نازركا الى النساء وقال لهن :

ـ ما أعجب شأنكن الليلة ! لماذا حضرنا من النطاق ان لم يكن اللهو والمرح ؟ ولم نفرط في الشراب • كل ما هناك اننا شربنا نخب لوكاشكا بمناسبة توفيقه في قتل الابركة !

وعندئذ رفع لوكاشكا قبعته تحية للنساء في رزانة وتهذيب • الا ان منظره كان يدل على القوة والفتوة والشباب • حتى وهو ساكن الحركة هادىء الاسارير • شأنه في ذلك كشأن الجواد الاصيل قد يقف راسخ القوائم في الارض كأنه الصخرة ، ولكنك تلمح في ذلك السكون من علائم الحيوية والفتوة والعنفوان ما لا تعبر عنه القفزات والألاعيب من عنزة لعوب •

وكان ينظر الى الفتيات بعينين ضاحكتين ولا يتكلم الا نزرا • وفي

هذه اللحظة انضمت ماريانكا الى الجماعة فرفع قبعته تحية لها في ثبات وتؤدة وأفسح لها مكانا لتمر ، ثم وقف أمامها وقد قدم احدى رجليه على الاخرى وشبك ابهاميه في حزامه العريض •

وردت ماريانكا على تحيته بايماءة من رأسها • ثم استقرت مع النساء على المصطبة وأخرجت حفنة من لب عباد الشمس من صدر قميصها • ومدت اليه يدها • فتناول قليلا من اللب وجعل يقزقزه ويلفظ القشر ، منعما النظر في ماريانكا وقد خيم على الجماعة الصمت منذ أقبلت ماريانكا عليهن كأنهن يحسسن لذلك وقعا خاصا •

وقطعت احدى النساء حبل الصمت قائلة :

ـ أعازم انت على الاقامة بيننا طويلا هذه المرة ؟

فأجابها لوكاشكا في رزانة وثبات :

ـ سأبقى حتى صباح غد •

وفي هذه اللحظة مر بالقرب من الجماعة جندي من جنود الكتيبة الروسية فهتف بيرجوشوف ضاحكا :

ـ لقد حل بالقرية ضيوف كثيرون • ولكن لا بأس بذلك فخمر الجنود طيبة ، وهم بها اسخياء !

فقالت احدى النساء :

ـ لقد احتل بيتنا ثلاثة من هؤلاء الشياطين • وارتاع جدي العجوز المسكين وهرع الى شيوخ القرية يستعيذ بهم فهزوا أكتافهم واعترفوا بعجزهم امام هذا الوباء الحكومي الوافد •

فقال بيرجوشوف متعجبا :

ـ آه ! هل نشأت من اقامتهم متاعب ؟

فقالت امرأة اخرى :

ـ انا اعرف اول هذه المتاعب • انها رائحة طباقهم الكريهة • رائحة

تضطر الواحدة منا الى مغادرة الدار هربا منها • ولكني يا عزيزتي أبعد منك نظرا • لاني اقول لهم ان التدخين داخل الكوخ ممنوع • وعليهم ان يدخنوا في فناء البيت ما شاؤوا • ثم هم لصوص ان لم تفتح الواحدة منا عينيها جيدا سرقوا كل شيء تصل اليه أيديهم • ولكن هذا العجوز ابن الجنية لم ينزل بيته احد منهم ، فلا يعنيه هذا الامر •

وقال نازركا وهو يميل قبعته على جانب رأسه :

ـ الادهى من هذا ما بلغني من ان فتياتنا القوقازيات عليهن تسوية فراش هؤلاء الجنود وتقديم الخمر والشهد اليهم بأيديهن •

فقهقه يرجوشوف وجذب اليه أقرب الفتيات وقبلها وصاح :

ـ كلامك والله صحيح • والجنود يفعلون هكذا مع الفتيات !

فصرخت الفتاة وهي تدفعه عنها :

ـ أبعد عني ايها الكهل ! سأخبر امرأتك العجوز !

ـ اخبريها ! هذا لا يمنع ان ما قاله نازركا صحيح • لقـــد صدر منشور بهذه التعليمات • ونازركا يعرف القراءة •

واجتذب اليه الفتاة التالية ليعانقها فهمت ان تضربه :

ـ ماذا تريد ايها الوحش !

ـ يا ساتر يا رب ! كدت توقعينني ! ويقال بعد هذا انهن الجنس الضعيف !

ـ اليك عني يا لكع ! ما الذي جاء بك من النطاق الان ؟ لقد كنت تغط في شخيرك حينما قتل لوكاشكا الابركة • ليته قتلك !•

وكان لوكاشكا طيلة هذا الوقت يقف صامتا يقزقز لب عباد الشمس، ويملأ عينيه من ماريانكا • وأحرجت نظراته الفتاة ، فاقترب منها وقال :

ـ قيل لي ان احد رؤساء الجند نزل في بيتكم •

وكالعهد بها لم تسرع الى الجواب ، بل رفعت اليه عينيها السوداوين

ولم تتكلم . فأجابت امرأة عجوز بدلا منها :

ـ هذا صحيح . ولكن لا بأس في ذلك ولن يلحقهم منه ضرر . فلهم كما تعلم بيتان . اما آل فومشكين المساكين فبيتهم الصغير الوحيد نزل به معهم رئيس ، فملأت امتعته معظم البيت حتى ضاق بأفراد الاسرة . فهل سمع احد بشيء كهذا من قبل ؟ ثم لماذا اتى الجنود الروس الى هنا ؟ هل بلدنا ساحة حرب ؟ لماذا لا يذهبون الى الحروب ؟

فقالت احدى الفتيات :

ـ سمعت انهم سينشئون قنطرة على نهر ترك .

واقترب نازركا من الفتاة الحسناء المستديرة الوجه اوستنكا وقال :

ـ بلغني انهم سيحفرون حفرة كبيرة يدفنون فيها الفتيات الحسان اللواتي يرفضن مبادلة الفتيان الحب .

وأشار بيده اشارة تدل على انه يعني بذلك نفسه . فضحك الجميع . ووثب بيرجوشوف الى امرأة عجوز متخطيا ماريانكا ، فصاح نازركا :

ـ ولماذا لا تقبل ماريانكا ؟ ان عليها الدور .

فصاح القوقازي وهو يجبر العجوز على عناقه :

ـ ان هذه العجوز أشهى منها !

وضحكت العجوز ودفعته في صدره .

وقطع عليهم الضحك اقتراب ثلاثة من الجنود الروس يحملون بنادقهم ليحلوا محل رفاقهم في حراسة عربة الذخيرة . فساد الوجوم . وأفسح نازركا الطريق للجنود . بيد ان لوكاشكا ثبت في مكانه وقطب جبينه وأولاهم ظهره من غير ان يتحرك ، ثم أتبعهم بنظرة احتقار ، فأضحك ذلك ماريانكا ، وانضمت لها الفتيات الاخريات في الضحك ، لان منظر الجنود وهم يمشون مشيتهم النظامية كان مضحكا في نظر هؤلاء القوقاز .

واقترب لوكاشكا في تؤدة من ماريانكا وسألها :

ـ في اي بيتيكما نزل ذلك الرئيس ؟

وتمهلت ماريانكا لحظة ثم أجابت :

ـ تركنا له الكوخ الجديد . الكوخ الصيفي .

فسألها وهو يهم بالجلوس بجوارها :

ـ أشاب هو أم شيخ ؟

ـ وهل تظن هذا يعنيني حتى أتحرى عنه ؟ في طريقي الى القبو كي أحضر جانبا من الخمر ، لمحته جالسا امام النافذة مع العم بيروشكا . ويخيل الي ان شعره احمر اللون . هذا كل ما اعرفه ثم انهم أحضروا معهم عربة مثقلة بالامتعة .

فزاد لوكاشكا اقترابا من الفتاة التي غضت بصرها عندما رأته ينظر في عينيها نظرة صريحة وقال :

ـ اني لسعيد اذ استطعت الحضور الليلة من النطاق .

فافترت شفتاها عن ابتسامة يسيرة وسألته :

ـ وهل ستقيم بيننا طويلا ؟

ـ الى الغد . هلا اعطيتني شيئا من اللب ؟

فملأت الابتسامة جميع وجهها ، ودست يدها في صدر قميصها وأخرجت ما به من لب عباد الشمس ثم مدت اليه راحتها وقالت :

ـ لا تأخذه كله .

فهمس قائلا وهو يتناول حبات اللب من بين يديه :

ـ كم اوحشتني ! لقد فكرت فيك طول هذه المدة وأنا بعيد عنك .

ثم الصق فمه بأذنها وهمس بشيء وعيناه تضحكان . فابتعدت عنه فجأة وصاحت بصوت مرتفع :

ـ هذا مستحيل ! لا يمكن ان آتي !

فعاد الى الهمس :

ــ لا تخافي •• عندي شيء اريد ان اقوله لك • تعالي !

فهزت رأسها نفيا ، ولكنها كانت تبتسم ابتسامة واضحة ••

وحضر شقيق ماريانكا الصغير وهو يلهث ويصيح :

ــ ماريانكا • ماريانكا • امي تريدك • حان وقت العشاء •

ــ اسبقني انت يا عزيزي وسأحضر فورا •

وعندئذ نهض لوكاشكا واقفا ورفع قبعته للمجموعة وقال كمن لا يهتم بما يقول ،وان كان الفرح الطاغي يطل من عينيه :

ــ يظهر انه يحسن بي انا ايضا ان اعود الى بيتي الان •

ثم اختفى في اول منعطف • وكان الليل قد خيم تماما على القريـة وأمست طرقاتها كلها مظلمة خالية ، وأصوات الضحك تصل من بعيد الى سمع لوكاشكا الذي جثم في المنعطف كالهر • ثم قفز في الظلام واجتاز الطريق لا الى بيته بل دار حول البيوت متجها نحو دار حامل العلم • وفي زقاق صغير مظلم افترش الارض في ظل سياج قصير وراح يحدث نفسه منتشيا عن ماريانكا :

ــ ما أجملها من فتاة ! انها جديرة فعلا بأن تكون ابنة صاحب العلم ! ولكن العفريتة تأبى ان تنقاد للمرح والهوى • ولكن سنرى ! سنرى !

وسمع خفيف قدمي امرأة في الظلام • فأرهف أذنيه • ولم يلبث ان تبين ماريانكا تقبل في ذلك الاتجاه • فما ان دخلت الزقاق حتى نهض لوكاشكا فجأة واقفا فارتاعت ثم لم تلبث ان ضحكت وقالت :

ــ أهو انت يا شيطان ! لقد أفزعتني ! أهذا ما زعمته من انك عائد الى دارك في الطرف الآخر من القرية ؟

فاضطرب لوكاشكا وطوقها بذراعه اليمنى ورفع ذقنها بيده الاخرى، وقال لها بصوت مرتجف :

ـ أقسم لك اني كنت أريد ان اقول لك شيئا !

ثم تحشرج صوته من فرط الاضطراب فسكت . فقالت له :

ـ وما هذا الذي تريد ان تقوله لفتاة تحت جنح الليل ؟ ان امي تنتظرني ، فاذهب الى حبيبتك يانكا ..

وخلصت نفسها من عناقه وأسرعت نحو البيت . فأسرع يجري بجوارها ويتوسل اليها ان تبقى معه قليلا . فخافت ان يكتشف اهل البيت وجوده . فوقفت بجوار سياج الدار وقالت له بدلال :

ـ ماذا تريد ان تقول لي يا ساهر الليالي ؟

ـ أرجوك يا ماريانكا ألا تسخري بي ! فلتذهب يانكا الى الجحيم ! قولي لي انك تحبينني فأحبك وحدك واستغني عن الذهاب الى الاخريات! انك تعذبينني يا ماريانكا ولا تسمحين لي بشيء من الوصال !

وأطرقت الفتاة ولم تجب ، وأخذت تعبث بأغصان السياج . وفجأة أربد وجه لوكاشكا وقال بحنق :

ـ لماذا تعذبينني ؟ علام الانتظار ؟ ألست أحبك ؟ ألست امرأة ؟

ولم تشب هدوء وجه ماريانكا شائبة . ودفعته بعيدا عنها برفق :

ـ انا فتاة . هذا صحيح ولكن لا حيلة لي فيما تريد ! ان كنت تحبني حقا سأتزوجك . ولكن لا سبيل قبل الزواج الى ما تريد !

فهتف لوكاشكا باستنكار :

ـ أحدثك عن الحب وتحدثينني عن الزواج ؟

ـ أليس هذا طبيعيا ؟

ـ ان الزواج موضوع آخر . انه ليس في يدينا . امنحيني حبك يا عزيزتي ماريانكا . أحبك !

وخرج صوته رقيقا عذبا صافيا وقد تلاشى منه الغضب والحدة فتعلقت ماريانكا بعنقه فجأة وقبلت شفتيه قبلة حارة وهمست :

ـ يا لك من عزيز !

ثم ضمته اليها وارتجف جسدها اليانع ، وفجأة نزعت نفسها من أحضانه وانفلتت داخلة فناء بيتها لا تلوي على شيء •

وتعقبتها توسلات الجندي القوقازي الحارة ان تتمهل قليلا حتى تسمع ما يود ان يقوله لها • ولكنها لم تستجب له وصاحت :

ـ اذهب والا افتضحنا ! ان هذا النزيل اللعين يخرج احيانا للتمشي في الفناء •

وهز لوكاشكا رأسه وقال لنفسه وهو منصرف :

ـ تريد ان تتزوجني ! لا بأس بالزواج • ولكن لماذا لا تكتفي الليلة بالحب ؟ لا بد لي الليلة من حبيبة !

ولحق بنازركا في حانة يانكا وشربا معا شيئا من الخمر • ثم توجه الى منزل امرأة اسمها دونيكا فقضى الليلة عندها ، غير مبال بما يعرفه من ابتذالها لنفسها مع كل طارق •

- ٣ -

صعلوك

صدق حدس الفتاة عندما قالت للفتى لوكاشكا ان النزيل اللعين قد يراهما • فقد كان أولينين فعلا يتمشى في الفناء عندما دخلت ماريانكا • فطرقت أذنيه اشارتها الى «النزيل اللعين» • وكـــان اولينين قد قضى الامسية في صحبة العم بيروشكا في كوخه الجديد • وأمر فانيوشـــا فأحضر منضدة «وسيموفارا» للشاي وجانبا من الخمر ، وعلى ضـــوء الشموع راح يصغي وهو يحتسي الشاي ويدخن السجائر الى تلـــك الاقاصيص التي جعل الشيخ يرويها على مسامعه • والشمعة تذوب على مهل ، وينعكس لهيبها الواهن على رأس الشيخ الحليق اللامع • وفراشات الليل تحوم حول الضوء حينا ، وحول الاقداح والأواني على المنضـــدة حينا آخر ، والليل من حولهما ساكن •

وفرغ المتسامران من احتساء خمس قوارير من خمر الجكير الوطني • وبيروشكا يقوم بدور سلطان الشراب • كلما فرغ قدحاهما أسرع فملأ

القدحين ، وقدم الى أولينين قدحه ، ثم بادر بشرب نخب مضيفه الشاب، ليستأنف بعدها الكلام ففي ذلاقة لا حد لها .

وتحدث الرجل عن حياة اهل القوقاز في سالف الايام ، وكيف كان ابوه العريض الكتفين المتين البنيان كفيلا ان يحمل على ظهره حملا يزن ثلاثة قناطير . يرفعه وحده مقعديا وينهض بـه دون ان يستعين بأحد . وكيف كان يشرب جالونين من الجكير في جلسة واحدة . ثم انتقل الى صدر شبابه هو . وكيف فاق في الصيد جميع أقرانه . ومن ذلك انـه اصاب ذات صباح غزالين . ثم عرج الى ذكريات غرامـــه وكيف كانت حبيبته تتسلل الى النطاق لتلتقي به خلسة تحت جنح الليل . وكان يروي ذلك كله بأسلوب شيق عذب جعل أولينين لا يشعر بمرور الوقت .

وكان بيروشكا يهز رأسه ويقول لصاحبه الشاب :

ـ لم تر مني ايها الصديق الا شبحا هزيلا . ولو أدركتني في شرخ شبابي لعرفت من امري عجبا ! بيروشكا اليوم واهن ذليل ، اما في تلك الايام فلم يكن صيت احد اعلى من صيته بين جنود الحامية . من الذي لا يضارع جواده جواد ؟ من الذي لا يضاهي سيفه سيف ؟ من الذي لا يباري سمره ومجلس شرابه ومرحه مجلس ؟ من الذي تتعلق به قلوب الفتيات والنساء ؟ انه بيروشكا ! ففي ذلك الوقت كنت فتى بمعنـــى الكلمة ، سكيرا ساطيا ، أسطو على قطعان الخيل في مراعي الجبال . اما اليوم ايها الصديق فقد انقرض هذا الطراز بين اهل القوقاز . وأصبح النظر اليهم يرتد الي حسيرا . فهم اليوم يرتدون الاحذيـــة الحديثة ، ويشربون بغير رشاقة . انهم عار لآبائهم ! فهم ضعاف هزال ، استأنستهم المدنية والحكومة ، وانقادوا لمواعظ المشايخ الذين ينهون عن اكل لحـــم الخنزير . ولكني لا أومن بهذه الفروق بين العشائر والعقائد . لان الله خلق كل شيء متاعا للانسان ، وليس عليه في التمتع به جناح . انظر الى

حكمة الحيوان ! ألست تراه يقيم بين أعواد القصب في ارض التتار او ارضنا ، واينما حل في ارض فهي موطنه ، وأي رزق ساقه الله اليه فهو طعامه ! ولكن الاشياخ يقولون ان من فعل ذلك حل عليه عذاب جهنم جزاء وفاقا • وأحسب ذلك كله باطلا !

فسأله أولينين :

ــ وماذا تعني بالباطل ؟

ــ أعني به جميع أقوال الوعاظ • أنا لا اصدقهم بل أصدق قول رجل من قادة الجيش ربطتني به في شبابي صداقة قوية ، لانه كان مثلي فتى ظريفا ، محبا للحياة ، حلو الشمائل • حسرتي عليه ! لقد مات في احدى المعارك • وكان من عادة هذا الصديق ان يؤكد لي ان جميع هذه الخزعبلات من اختراع الوعاظ انفسهم ! وكان حين يتحدث عن الموت يقول : «انك حين تموت سينمو العشب والعوسج فوق قبرك • وذلك ختام كل شيء ! لا تركن الى شيء بعد نزولك حفرة في بطن الارض !»

وفجأة سأله أولينين :

ــ كم بلغت من العمر يا يروشكا ؟

ــ علم ذلك عند الله !

ــ على وجه التقريب ؟

ــ نحو السبعين • ليس أقل من ذلك • فاني لم اكن طفلا عندما اعتلت امرأة عرش بطرس الاكبر • وعلى هذا الاساس تستطيع ان تحسب مدة عمري • انه لا يقل عن السبعين •

ــ حقا • ولكنك لم تزل فتى ظريفا •

ــ الحمد لله • فبنيتي لم تزل سليمة • وليس في حياتي ما يكدرها سوى تلك الحيزبون !

ــ ماذا فعلت بك ؟

ـ أفسدت حياتي !

وصمت الرجل ٠ وكان واضحا انه لا يريد الافصاح عن شيء ٠ ثم ابتسم فجأة وصاح بأولينين :

ـ اين ذهبت بك الظنون ؟ اشرب !

وناول أولينين كأسا ، واستطرد يروي ذكرياته :

ـ كنت وما زلت صيادا لا يشق له غبار ، خبيرا بالحيوانات والطيور ومسالكها وتصرفاتها ! ولديّ كلاب مدربة للطراد ، وبندقيتان وشباك وباز للصيد ٠ فان كنت محبا للقنص حقا ، ولست ممن يتشدقـــون بالرياضة وهم اهل كسل ووخامة ، أخرجتك معي للصيد ٠ وسترى اي رجل انا ! ما ان ارى اثرا على الارض حتى أعرف الحيوان ، وأين سيرقد، وأين سيرد الماء ٠ فأختار لنفسي موقعا أكمن فيه طول الليل ارقب ظهور الحيوان ٠ فهكذا أوثر ان اقضي الليل ، لا قعيدا في الدار ٠ فماذا يصنع الرجل في الدار ؟ انه لا يجني الا معاقرة الخمر او التعرض لثرثرة النساء٠ وصراخ الاطفال وذلك أقرب السبل الى الجنون ٠ اما التربص في العراء للصيد فأمر يجلو النفس ويشرح الصدر ٠ ستنظر الى السماء من فوق رأسك فترى حركات الكواكب وتعرف كم انقضى من الليل وكم بقي ٠ وتصيخ لصمت الغابة فيحدثك كل حفيف فيها حديثا خاصا وأنت فـــي انتظار حركات الحيوانات التي تخرج في موهن من الليل لترد الماء ٠ وقد تسمع طلقة آتية من مكان بعيد فتأخذ في التفكير : ترى من صاحبها ؟ هل هو صياد مثلك يقضي الليل في ترصد حيوان ؟ وهل كان أوفر منك حظا فظفر بفريسته ؟ وهل ارادها ام اخطأها ام لم يصب منهـــا مقتلا ؟ أبغض شيء الى نفسي ان يخطيء صياد المقتل من فريسته ! ان الحيوان عندئذ يجر نفسه جرا بين أعواد القصب والدم ينزف من جراحه ٠ وذلك ايذاء وتعذيب ينبغي ان تترفع عنهما ٠

وصب بيروشكا قدحين آخرين ، ودلف الى موضوع آخر :

ـ حدث ذات ليلة وأنا ساهر على ضفة نهر ترك ان رأيت مهدا طافيا يحمله تيار النهر على وجهه • فتدفقت الخواطر عندئذ على ذهني • ترى لمن هذا المهد ؟ وخطر لي ان فريقا من جنودكم الملاعين انقضوا على احدى القرى وفتكوا بمن فيها من النساء • وان جنديا منهم تناول الطفل الرضيع من مهده فقبض على ساقه ثم طوح به فحطم رأسه على الجدار ! لا تقل انهم يتورعون عن ذلك ! لقد تجرد الناس من الضمائر ولم يعد للخساسة البشرية حدود ! ثم قذفوا بالمهد الخاوي الى النهر ! وبعد قليل مر بـي حيوان صغير في طور الطفولة وقد غامت نفسي بالخواطر القاتمة التي أثارها مرأى المهد الخاوي • وبحركة آلية ، بحكم العادة ، رفعت بندقيتي وقلت : «باسم الاب والابن» وأوشكت ان اطلق النار على ذلك الحيوان الصغير • ولكن يدي ارتجفت ، وسقطت البندقية من يدي وقلت : «اذهب يا صغيري الى امك !» •

وصمت بيروشكا بعد ذلك صمتا طويلا • وقد أطرق يفكر • ونهض أولينين ليبسط ساقيه بعد طول الجلوس وخرج يتمشى في الفناء ويداه خلف ظهره • وتنبه بيروشكا من سبحات تفكيره فوجد الفراش يتهافت على الشمعة ويكاد يحترق فصاح به :

ـ ما أحمقكن ! الى اين تطرن ؟ ما أحمقكن !

ثم وقف وراح ينحي الفراش بأصابعه الغليظة عن النار •

في فضاء الله سعة • فلماذا تلقين بأنفسكن الى النار دون جميع الاتجاهات ؟ لا تقتلن أنفسكن ايتها الحمقاوات !

واختلج صوته الاجش بالحنان حتى أوشكت ان تقطر من نبراتـه العبرات • ثم صب لنفسه خمرا وراح يعب وهو يحدث الفراش حينـــا ويحدث نفسه حينا آخر • وأولينين يذرع الفناء وحده •

وأدهش أولينين أن يسمع همسا عند باب الفناء • وبحركة لا ارادية كتم أنفاسه • فسمع ضحكة امرأة ثم صوت رجل • ثـم صوت قبلة • وعندئذ تعمد ان يعبث بقدمه في الارض كي يشعر العاشقان بوجوده ، واجتاز الفناء الى الجانب الآخر • وسمع باب السياج يقفل • ولكنه لمح بين اغصان السياج فتى يرتدي ثوبا جركسيا عرف فيه لوكاشكا • ثـم مرت بأولينين فتاة طويلة القامة ، تعصب رأسها بمنديل ابيض ، وقـد شمخت بأنفها ، ونمت خطواتها عن اعتداد • فأتبعها أولينين بنظراته الى ان دخلت الكوخ الشتوي ، ورآها تخلع منديلها وتجلس ، فاستولى عليه فجأة شعور بالوحشة والكآبة • وثارت في حنايا نفسه اشواق مبهمـة وأكلت قلبه الغيرة والحسد •

وكان الظلام قد ساد بيوت القريـة وخفتت جميـع الاصوات • وانفردت بالليل اشجار الحور العالية ذات الظلال القاتمة • ونقيـق الضفادع يصل خافتا رتيبا من المستنقعات البعيدة • ثم صاح ديك من فناء بيت قريب • ولمح اولينين صديقه الشيخ وقد نام فوق ذراعه على المائدة•

وبعد قليل شق الليل صوت جمع من الفتيان يغنون في مكان بعيد اغنية مرحة • فأفاق بيروشكا من غفوته ، وقال :

ـ أتدري من ذا الذي يغني ؟

فقال أولينين بسأم :

ـ من عساه يكون ؟

ـ انه الفتى الشجاع لوكاشكا • يغني لانه قتل رجلا من الابركة • ما أحمقه ؟ هل في ذلك العمل ، على ما فيه من شجاعة ، ما يبهج ؟

فسأله أولينين بفضول :

ـ ألم تقتل انسانا قط يا بيروشكا ؟

فرفع الرجل رأسه وحملق مليا في وجه أولينين وصاح :

ــ ما هذا السؤال ايها الشيطان ؟ ان قتل نفس بشرية لامر فظيع ايها الفتى ! لا تستهن بالقاء مثل هذا السؤال !

ثم انتصب الشيخ واقفا وقال :

ــ طابت ليلتك ايها الصديق ! لقد أصبت شبعي من طعامك وشرابك الان هل آتي غدا لاصحبك الى الصيد ؟

ــ وهو كذلك •

ــ استيقظ مبكرا اذن • واذا تأخرت في النوم فرضت عليك غرامة •

ــ سأستيقظ قبلك • لا تخف •

وانصرف الشيخ • وبعد قليل تبين أولينين صوت بيروشكـــا بين اصوات الشباب المنشدين يجلجل كالرعد ، فتنهد ، وهو يأوي الى فراشه قائـــلا :

ــ يا لها من حياة !

***

لم يكذب بيروشكا حينما قال انه كان أشجع الشجعان وفتى الفتيان في القرية كلها زمن شبابه • والواقع انه كان ايام الجندية اجرأ جندي في الكتيبة • ولا تخلو يداه من دماء نفر من الابركة والروس في ذلك العهد السحيق • ثم اعتزل خدمة الجيش العامل ، وأقـــام بمفرده ، لان زوجته اعتنقت المسيحية منذ نحو عشرين سنة وهجرته دون ان يعقب منها نسلا ، وتزوجت عريفا روسيا من اهل ديانتها الجديدة •

وفي تلك الفترة احترف بيروشكا النهب والسلب وقطع الطريق في الجبال • فكان يسرق التتر والابركة والروس ايضا • ووقع في يد رجال الامن ودخل السجن مرتين • وقضى الشطر الاكبر من حياته يصطاد في الاحراش والغابات • وكم من ايام متعاقبة قضاها هناك وطعامـــه الخبز

القفار ، وشرابه ماء النهر او الينبوع ، لا يذوق الخمر . حتى اذا عاد من الصيد الى القرية انفق ليله ونهاره في القصف والمرح والمجون والسكر.

وبعد ان فارق بيروشكا أولينين ، اشترك مع لوكاشكا وصحبه في الغناء والشرب والقصف ، ثم نام بضع ساعات ، ولكنه استيقظ قبل ان ينبثق نور الفجر ، وظل مستلقيا في فراشه يفكر في ذلك الشاب الذي تعرف اليه في ليلته تلك . وقد طاب له ما تبينه في أولينين من سلامة طوية ، وسذاجة . وكانت آية تلك السذاجة عنده ان اولينين لم يبخل عليه بكأس من الخمر بلا مقابل ، وراق له ايضا ان يجد اولينين ظريفا محبا للحياة البسيطة ، رغم ثرائه العريض . وساقه ذلك الى التفكير في امر الروس ، وكيف يصلون الى الثراء الواسع بهذه السهولة ، ومع ذلك تظل نفوسهم بسيطة .. وعجب لامرهم ، كيف يظلون جهلاء بكل شيء عملي ، رغم تعلمهم .. وانتقل من ذلك الى التفكير في امكانيات استغلال معرفته الجديدة بأولينين للحصول على منافع شتى !

وكان الكوخ الذي يقيم فيه العم بيروشكا رحيبا ، حديث البنيان ، بيد ان اثر افتقاره الى عناية المرأة واضح كل الوضوح ، فهو قذر كل القذارة ، مضطرب غاية الاضطراب . وهذا نقيض ما اشتهر به القوقازيون من النظافة المفرطة . فعلى المنضدة سترته الملطخة بدم الدراج البري ، وقد انتشرت هنا وهناك على المقاعد والارائك أخفاف من الجلد وبندقية ورصاص ، وخنجر وخرق ممزقة ، وملابس مبتلة . وفي ركن من الاركان اناء به ماء قذر نقع فيه خف من الجلد . وعلى الارض شبكة صيد بها دراج ميت . ودجاجة مربوطة من رجلها الى المنضدة ، تتمشى وتلتقط الحب من الارض ، وهناك ايضا جرة من الفخار مكسورة ، وضعت فوق الموقد الخامد ، وبها سائل في لون اللبن ، وفوق قمة الموقد وقف صقر من صقور الصيد يصرخ ويحاول قطع الحبل الذي ربط به . وهو ينظر

شدرا الى الدجاجه. اما العم بيروشكا فكان مرتديـــا جلباب النوم ، مضطجعا فوق سرير صغير ملاصق للموقد ، وقد رفع رجليه ، وأسند قدميه على جانب الموقد . وطفق يقلب يديه الغليظتين ويتحسس الخدوش التي خلفها الصقر في يديه لانه تعود حين يخرج للصيد ان يحمل الباز فوق يده من غير قفاز .

وبعد قليل طرق سمع بيروشكا صوت حاد يناديه من تحت النافذة فعرف فيه صوت الفتى لوكاشكا :

ــ أأنت هنا يا عماه ؟

فصاح الشيخ المرح يجيبه :

ــ أجل . انا هنا انا هنا ! ايها العزيز لوكاشكا اهلا بك . ما الذي يستطيعه عمك فيؤديه لك ؟ أأنت في طريقك الى النطاق ؟

ولما سمع الصقر صياح سيده اشتد هياجه ، وجعل يصفق بجناحيه كأنه يستحثه على الخروج به الى الصيد والشمس في خدر أمها .

وكانت للوكاشكا منزلة خاصة في قلب الشيخ بيروشكا . ذلك ان صفات الفتى الشجاع من قوة وحمية وبأس ، جعلت منه الشخص الوحيد الذي أفلت من احتقار الشيخ الشامل للجيل الجديد من القوقازيين .

ولم يكن تقدير الشيخ للوكاشكا خالصا لوجه الحـــق . بل كانت للمنفعة يد في ذلك التقدير . فلوكاشكا ووالدته من جيرة الشيخ الاقربين . وكان من عادتهما ان يتكرما على الشيخ في احيان كثيرة بشيء من الخمر او الزبد او اللبن الرائب او الفطير ، وما الى ذلك من الاشياء التـــي تصنعها يد المرأة في بيوت القوقاز ، ولا تتيسر لشيخ أعزب يعيش بمفرده مثل بيروشكا . وكان بيروشكا على عادته يبرر لنفسه ذلـــك السخاء ، ويزين لها تقبل الهدايا من الاصدقاء ، قائلا بلهجته الظريفة :

ــ وما الضرر ؟ انهما يعطياني ما يفيض عن حاجتهما . وليس ذلك بلا

مقابل • بل اني استطيع في الحين بعد الحين ان اعطيهما شيئا من الطيور التي أصطادها • او السمك • او الخنازير الصغيرة •

لذا رأينا بيروشكا يخف الى الفتى في بشاشة وترحاب :

ـ ما أسعدني برؤيتك • أعائد انت الان الى النطاق ؟

ـ لقد جئتك بالخمر التي وعدتك بها عندما كنا في النطاق •

فتهلل الشيخ وأخذ يدعو له بالخير • ثم أقبل على سرواله الفضفاض فتناوله من فوق الارض وارتداه ، ثم تناول صداره ايضا ، وكان ملقى بجوار الموقد ، ثم تمنطق بحزام عريض من الجلد حول خاصرته ، وغسل يديه من ماء كان في جرة من الفخار ، ثم جففهما في سرواله ، وانثنى يصلح من امر لحيته بمشط مكسور ، ووقف بعد ذلك امام لوكاشكا قائلا:

ـ اني على تمام التأهب !

وبحث لوكاشكا عن كأس مسح عنها الغبار بيده ثم ملأها للشيخ • فتناولها بيروشكا في جد ووقار ، ورفعها فوق رأسه ليتلو نخبه :

ـ في صحتك يا لوكاشكا • واسأل الله ان يحقق لك كل ما تتمنى وأن تغدو على الدوام بطلا موهوبا ، وأن تظفر بوسام الصليب •

وأفرغ الكأس في جوفه ، وعندئذ ملأ لوكاشكا الكأس وشرب نخب بيروشكا ثم وضع بقية الخمر على المنضدة • وبادر الشيخ الى حجرة اخرى فأحضر سردينا مملحا في طبق ازرق اللون ، وهو الطبق الوحيد الذي يمتلكه ، ووضعه امام لوكاشكا في زهو وقال :

ـ بيتي لا يخلو والحمد لله من الطعام • والآن حدثني عن موسييف•

فأخذ لوكاشكا يقص على الشيخ كيف ان ذلك العريف اخذ منه بندقيته • وكان واضحا ان لوكاشكا يريد ان يستطلع رأي الشيخ في سلوك عريفه ، فهز بيروشكا رأسه هزة العليم وقال :

ـ اترك له البندقية • فانك ان لم تنزل له عنها لم يحسن الشهادة

فيك ، ولا تستطيع الحصول على المكافأة لقتلك الابركة .

فظهر التردد على وجه الفتى القوقازي ثم قال :

ــ ولكن هذه المكافأة يقال يا عمي انها ضئيلة ما دام الشخص غير مقيد في سجل الفرسان الرسميين ، ثم ان البندقية التي طمع فيها العريف غالية الثمن ، تساوي على الاقل ثمانين روبلا .

ــ وماذا لو كانت تساوي مائة ؟ دعها له ايها الابله . فقد أقدمت شخصيا على مثل تلك البلاهة في ايام شبابي . كان لي يومئذ جـــواد جميل . وطمع الضابط في الجواد ، وقال لي بصراحة : «اعطني جوادك أجعلك حامل علم» وهي رتبة كما تعلم توازي رتبة ملازم ، ويعامـــل صاحبها معاملة الضباط . ولكني كنت فتى أبله فلم اقبل هذه المساومة . ولم أظفر بشيء . وهأنذا كما ترى !

وتذكر لوكاشكا عندئذ مسألة اخرى فقال :

ــ وبهذه المناسبة انا مضطر ايضا الى شراء جواد ، ويقال انه لا يمكن شراء جواد من الضفة الاخرى للنهر بأقل من خمسين روبلا وأمي لم تبع محصول الخمر بعد وليس لديها نقود .

فهز الشيخ بيروشكا رأسه باستخفاف وقال :

ــ فتى مثلك كالبغل طويل عريض يفكر في شراء جواد بالنقود ؟ اننا في زمننا لم نكن نفكر في شيء من ذلك . وعمك بيروشكا يا ولدي عندما كان في مثل سنك سرق بالفعل قطيعين كاملين من الجياد ، سلبهما من قبائل النوغاي في الجبال ، وساقهما بمفرده فاجتاز بهما نهر ترك ، وكثيرا ما كنت ابيع الجواد الاصيل بنصف لتر او أقل من الفودكا ، او لقاء قفطان .

ففغر لوكاشكا فاه وسأله :

ــ ولماذا كنتم تبيعون الجياد الاصيلة بهذا الثمن البخس ؟

فقال الشيخ بازدراء :

ـ ما أغباك يا لوكاشكا ! لماذا تظن ان الفتى منا كان يسرق ؟ انـه يسرق لكي تتوفر له الوسيلة للسخاء • كي يبعثر وينفق بلا حساب ، ولا يقيم وزنا لقيمة ما في يده ! اما انت يا لوكاشكا فعلى شجاعتك وفتوتك لا احسبك قد وصلت بعد الى المستوى الذي تعرف به كيف تسرق الجياد •

وصمت لوكاشكا • فلكزه بيروشكا قائلا :

ـ هيه ! لماذا لا تتكلم ؟

ـ وماذا عساي اقول لك يا عماه ؟ يبدو ان جيلنا ليس على طـراز جيلك • واننا لا نصلح لما كنتم تصلحون له في سننا •

فقلب بيروشكا شفتيه احتقارا وقال مقلدا طريقة لوكاشكا في الكلام:

ـ لسنا من طرازكم يا عم بيروشكا !! ما أغباك ! أتظنني في مثـل سنك كنت صعلوكا لصا فاتكا ؟

ـ ماذا كنت اذن ؟

ـ لو تدري ! كان عمك بيروشكا في مثل سنك حمارا خائبا مثلـك تماما يا ابن اخي العزيز ! ولكنني كنت شابا ودودا يزورني رجال العشائر مما وراء النهر ، فأسقي الواحد منهم حتى تصرعه الخمر • وينام فأترك له فراشي •• واذا ذهبت لزيارته في موطنه اخذت له معي هدية حسنة• اما انتم الآن فلا تصلحون الا لقزقزة لب عبـــاد الشمس • عن قريب سأراكم ايها الفتيان تمضغون اللبان ، يا حسرتي على فتيان القوقاز ! ثم تعلمت بمرور الوقت حيل رجال العشائر مع جيادهم • وشيئا فشيئا تعلمت السرقة حتى صرت لصا هاما !

وساد الصمت بعدها برهة الى ان قال لوكاشكا :

ـ الحق معك يا عماه • عود جيلنا واهن ولا نستطيع التغلب على الخوف • فهذا زميلنا نازركا وهو جندي شجاع طلب منه كرايخان ان

تذهب الى مراتع النوغاي لنحضر له جيادا يأخذها منا بثمن طيب • ولكن نازركا رفض ان يذهب • فهل ترى كان في استطاعتي ان اذهب بمفردي؟

ــ ولماذا تذهب بمفردك ايها الغر ؟ هل نسيت عمك بيروشكا ؟ هل تظن ان عودي واهن مثل عودك ؟ اعطني جوادا اركبه وستراني اطير كالشيطان الى بلاد النوغاي !

ــ وماذا أستفيد من مفاخرتك هذه ؟ الافضل من ذلك ان تدلني على ما استطيع ان افعله ولا يغيبن عن بالك ان كرايخان ينتمي الى عشيرة من عشائر النوغاي ايضا • ولذا لا يمكن الوثوق به •

فقطب بيروشكا حاجبيه وقال :

ــ ولماذا لا تثق بكرايخان ؟ ألأنه من سلالة الحجن ؟ ليس هذا مبررا للشك فيه • فان اهل عشيرته جميعا كانوا على الدوام من خيار الناس • وكان والده من أصدق اصدقائي • وسأخبرك كيف تطمئن الى جانب كرايخان • اطلب منه ان يقسم لك الا يخونك • وعندئذ لا ينالك منه سوء• ومع ذلك اذا خرجت معه الى مكان قفر فمن حسن الفطنة ان يكون مسدسك محشوا على اهبة الانطلاق وفي متناول يدك في اية لحظة ، لاسيما عندما تحين ساعة قسمة الجياد • فعند القسمة تحدث الخصومة دائما بين الشركاء • ولاسيما لصوص الجياد • وأذكر ان رجلا من النوغاي كاد يقتلني ذا تمرة عندما طلبت منه عشرة روبلات ثمنا لحصان• انا لا ادعوك الى سوء الظن فلا بأس بالثقة • ولكن اياك ان تنام من غير ان تكون بندقيتك تحت رأسك • وأنت مستعد لاطلاقها في اية لحظة •

وكان لوكاشكا يصغي لكلام الشيخ في اهتمام • ثم سأله :

ــ على فكرة يا عم • هل عندك شيء من العشب الذي يفتت الحصى؟

ــ كلا • ولكني استطيع ان اقول لك كيف تحصل عليه •

ــ أرجوك ان تخبرني •

ــ أتعرف السلحفاة ؟ ما أخبثها !

ـ أعرفها طبعا !

ـ ابحث عن جحرها ، واجعل حولها سياجا من الحصى وهي خارجة حتى لا تستطيع الدخول . وعندئذ ستأتي وتدور حوله عبثا ثم تذهب وتأتي في فمها بذلك العشب ، فيفتت الحصى وتنفذ من السياج . فاذا ذهبت في اليوم التالي صباحا وجدت العشب المفتت للحصى بجوار الجزء المحطم من السياج .

ـ هل جربت هذا العشب يا عم ؟

ـ لم أجربه بنفسي . ولكن قوما آخرين جربوه وحدثوني بأمره . أما انا فلم استعمله في حياتي ، وسأقول لك تعويذة تضمن لك السلامة في بلاد النوغاي . انها تعويذة قديمة . حمتني من القتل ومن الرصاص .

فضحك لوكاشكا وقال :

انشدني تلك التعويذة !

فشرع العم ييروشكا ينشد اغنية قديمة بصوته الاجش ، فلما فرغ منها صاح به لوكاشكا :

ـ اتعتقد حقا ان هذه التعويذة هي التي حمتك من القتل ؟ انما كان ذلك من قبيل الصدفة لا اكثر .

ـ ايها الشيطان ! لقد بدأت تتصنع الذكاء ! احفظ التعويذة ، وثق انها ستنفعك . او فلتذهب بلا تعويذة . فانك فتى شجاع .

ـ ها قد انبلج الصباح يا عم وآن ان أرحل . تعال لزيارتنا في النطاق يوما من الايام .

ـ صحبتك السلامة . اما انا فذاهب الى طالب الحربية الثري . لاني وعدته بالخروج معه للصيد . ويبدو لي انه سخي الكف .

— ٤ —

رب البيت

غادر لوكاشكا بيت بيروشكا الى داره • وكان ضباب الصباح قد اخذ ينتشر على وجه الارض ويغلف القرية بردائه الابيض الكثيف ، فيحجب الماشية عن النظار ، بيد ان صوت ثغائها كان يصل الى الاسماع من كل جانب وقد بدأت تنشط وتتحرك في الافنية والحظائر • والديكة تصر على التنبيه الى طلوع النهار بصيحاتها المتكررة •

وأخذ نور النهار يتضح ويقوى ، وقد بدأ اهل القرية ينشطون ايضا• ولم يتمكن لوكاشكا من تبين سياج بيته لان الضباب كان قد لفه في ردائه من جميع الجهات • ولم يتضح له مدخل البيت وحظيرة البهائم المكشوفة الى ان أصبح عن كثب منهما • وعندئذ طرق سمعه من الفناء المحجوب بالضباب صوت فأس تكسر خشبا •

ودخل لوكاشكا الكوخ وكانت والدته قد غادرت فراشها ووقفت امام الموقد تلقي فيه بقطع الخشب • اما شقيقته الصغيرة فلم تكن قد

استيقظت بعد . فلما رأته أمه سألته بكل هدوء :

ـ هل أصبت يا لوكاشكا ما يكفيك من المرح واللهو ؟ وأين قضيت ليلتك ، ان كان لي ان اسأل هذا السؤال ؟

فظهر الارتباك والتردد على الفتى ، وتشاغل بمد يده الى بندقيته وأخرجها من كيسها وراح يفحصها مدققا ، وقال :

ـ قضيت الليلة في القرية .

وهزت امه رأسها هزة الخبير العليم ... وانصرف لوكاشكا الى العناية ببندقيته ، فوضع جانبا من البارود في خزانتها ، وتناول كيسا أخرج منه عددا من الخراطيش وبدأ يحشوها ثم يسد كلا منها برصاصة. وبعد ان يملأ كل خرطوشة يختبرها بأسنانه . وفجأة قال :

ـ قلت لك من قبل يا امي ان حقائبي بحاجة الى الاصلاح .

ـ أظنها قد اصلحت . فان اختك البكماء كانت تصلح امامي شيئا في اللية الماضية . وهل أفهم من هذا أن موعد عودتك الى النطاق قد أزف ؟ اني لم اجلس اليك بعد .

فأجابها لوكاشكا وهو يعيد كيس البارود الى مكانه :

ـ لا بد لي من الرحيل متى اتممت استعدادي . وأين اختي البكماء؟

ـ أظنها في الفناء تكسر الخشب . وقد طال قلقها عليك سحابة الليل . وظلت تشير لي معبرة عن لهفتها على رؤيتك . فهل أناديها ؟ لقد عرفت قصة الرجل الذي قتلته بحذافيرها .

ـ فليكن . دعيها تأتي . واحضري لي شيئا من الشحم لتشحيم سيفي .

وخرجت العجوز . وبعد هنيهة اقبلت شقيقة لوكاشكا البكماء ، وهي اكبر منه بست سنوات .. ولولا العاهة وما فرضته على ملامحها من بلادة لنشأت أشبه الناس به .

وكانت البكماء ترتدي قميصا خشنا تكثر فيه الرقع المتباينة ٠ حافية القدمين اللتين يكسوهما الوحل ٠ وعلى رأسها منديل ازرق اللون اكل عليه الدهر وشرب ٠ اما عنقها وذراعاها فتكثر فيها العضلات البارزة حتى كأنها رجل لا امرأة ٠ ومظهر ثيابها وسلوكها ينبيء انها مارست اعمال الرجال الخشنة لا اعمال النساء ٠

وكانت الفتاة عندما دخلت تحمل حزمة كبيرة من الخشب القت بها بجوار الموقد ، ثم توجهت الى شقيقها فلمست كتفه ، وقد أشرق وجهها كله بابتسامة حبور ٠ وراحت تشير اليه اشارات متلاحقة بأصابعها ووجهها وجسمها كله ٠ وأخوها منتبه لاشاراتها ٠ ثم قال :

ــ كل هذا حق ٠ انك فتاة طيبة يا ستبكا ٠ ولذا تستحقين مكافأة٠

وأخرج من جيبه كعكتين قدمهما اليها ، فاحتقن وجه البكماء من شدة السرور ، وجعلت تصيح صياحا أشبه بصياح الطيور للتعبير عن سرورها٠ وجعلت تشير اشارات اخرى غريبة سريعة للغاية ٠ ولوكاشكا يبدو عليه انه يفهم كل ما تعنيه ٠ فيومىء برأسه وعلى ثغره ابتسامة باهتة ٠

والحقيقة ان الفتاة كانت تقول له انه من المستحسن ان يهدي فتيات القرية شيئا من ذلك الكعك فهن يستطبنه ٠ ولاسيما وان احدى هؤلاء الفتيات تحبه الحب كله ٠ وهذه الفتاة هي ماريانكا أفضلهن جميعا ٠

وقد رمزت الى ماريانكا باشارة سريعة الى منزل تلك الفتاة ٠ وعبرت عن حب ماريانكا بضغط يدها على صدرها ثم تقبيلها كأنها تعانق شخصا آخر ٠ وفي هذه اللحظة عادت امها الى الحجرة ورأت اشارات الفتاة وفهمت ما تعنيه ٠ فابتسمت الام وهزت رأسها ٠ ثم قالت لابنها :

ــ لقد أخبرت اولنكا منذ بضعة ايام عن رغبتي في اتمام الخطبة ٠ فلقي قولي عندها قبولا حسنا ٠

ولم يتكلم لوكاشكا بل لاذ بالصمت برهة وهو ينظر الى امه ثم قال:

ـ ومتى تنوين ان تبيعي الخمر يا أماه ؟ اني بحاجة الى جواد ٠
ولم تسترح الام لتعرض ابنها لشئون البيت فقالت :
ـ سأبيعها في الوقت المناسب ٠ ولا بد اولا من اعداد الدنان اللازمة لنقلها الى السوق على عربة ٠ وقد أعددت لك اشياء ، فهل تأخذها معك الى النطاق في حقيبة اقترضتها من الجيران ام تحب ان تضعها في كيسك؟
ـ وهو كذلك ٠ ولا تنسى اذا حضر كرايخان ان ترسليه لمقابلتي في النطاق ٠ فسوف لا احصل على اجازة قبل مدة طويلة ٠
ـ سأرسله اليك ٠ انك لم تنم طول الليل ٠ قضيت الليل ساهرا في القصف والمجون في حانة يانكا ٠ فاني عندما استيقظت في الليل لاعنى بالماشية سمعت صوتك عاليا تغني ٠
ولم يجب لوكاشكا ٠ بل خرج الى الدهليز وحمل حقائبه على كتفه وتناول بندقيته ثم قال وهو على عتبة الباب :
ـ الى اللقاء يا امي ٠ وأرجوك ان ترسلي الي دنا صغيرا من خمرنا مع نازركا ، فقد وعدت الزملاء بذلك ٠
ـ رعاك الله يا لوكاشكا ٠ سأبعث اليك بطلبك ٠ ولكن اسمع نصحي يا ولدي ولا تكن متهورا ٠ واحرص على رضاء رؤسائك في العمل ٠ وسأبيع انا الخمر عما قريب ٠ وأشتري لك الجواد الذي تختاره ٠ وكذلك سوف اخطب لك الفتاة ٠٠
فقطب حاجبيه وقال على استعجال :
ـ عظيم عظيم !
وعندئذ تدخلت اخته البكماء في الحديث وجعلت تشير اشارات سريعة فهم منها انها تنتظر منه ان يقتل رجلا آخر من رجال الاعداء ٠ فابتسم لوكاشكا لحبها الساذج ، وحمل بندقيته وراء ظهره ، ثم خرج من باب السياج في خفة ونشاط ، وغاص في الضباب الكثيف ٠ وظلت امه واقفة

تشيعه بنظراتها برهة . ثم دخلت الكوخ وراحت تعمل .

***

غادر لوكاشكا داره عائدا الى النطاق في الوقت الذي كان فيه العم بيروشكا ينادي كلابه لتتبعه ، ثم اتجه الى منزل اولينين عن طريق المسالك الخلفية للقرية ، لانه مثل معظم الصيادين شديدة التطير ، ولذا فهو لا يحب ان يقابل احدا قبل خروجه للصيد .

وعندما وصل كان اولينين لا يزال غارقا في النوم. أما خادمه فانيوشا فكان قد فتح عينيه ولكنه ظل مخلدا الى فراشه . واذا بالباب يفتح ويبرز منه العم بيروشكا وبندقيته على كتفه ، وقد ارتدى ثياب الصيد كاملة وصاح بصوته الجهوري :

ـ النذير النذير ! النفير النفير ! لقد هجم علينا الحجن ، هيا انهضا ! جهز يا فانيوشا السيموفار ! وأنت ايها السيد ! انهض ! فقد استيقظ الجميع ! حتى الفتيات غادرن فراشهن . انظر من النافذة الى هذه التي تذهب لتملأ جرتها بالماء !

وفتح اولينين عينيه وقفز من فراشه وهو يشعر بغاية النشاط والسرور ، كأنما صوت الشيخ فتح قلبه للحياة . وهتف :

ـ هيا أسرع يا فانيوشا هيا أسرع !

فقال الشيخ بازدراء :

ـ هذا هو خروجكم للصيد ايها الشبان ، لقد فرغ الآخرون من تناول طعام الافطار ، وأنت ما زلت غارقا في النوم ؟!

ونادى بعد ذلك كلبه فداعبه ، ثم صاح بصوت مرتفع كأنه في ساحة غاصة بالناس لا في حجرة صغيرة مع شخص واحد :

ـ هل بندقيتك على ما يرام ؟

ــ اني مقر بذنبي • هيا يا فانيوشا هات البارود •

ــ هل أفرض عليك غرامة ؟

فقال اولينين في دعابة وهو يرتدي حذاءه :

ــ اول ذنب مغتفر دائما •

فهز بيروشكا رأسه في استعلاء وقال :

ــ حسنا • سنشمل الذنب الاول بصفحنا • ولكن ان تكرر منك التأخر في النوم ، حكمنا عليك بغرامة ، بجالون من الخمر • ان نتيجة تأخرك اننا سوف لا نصادف الا غزالا واحدا على الاكثر •

فقال اولينين وهو يقلد لهجة الشيخ :

ــ واذا حالفنا الحظ والتقينا به كان اذكى منا وأشد دهاء فلا نستطيع ان نوقعه في حبائلنا •

ــ أتحسب انه يكفي ان تضحك وتتهكم لتحل مشكلاتك ؟ الافضل ايها الفتى ان نضع يدنا على الغزال اولا ثم ننصرف للحديث ما شئنا • والآن اسرع باستكمال استعدادك •

وكان بيروشكا قد اتجه الى النافذة وأطل منها ، فلم يلبث ان قال :

ــ هاهو ذا رب البيت قادم لمقابلتك • وقد ارتدى سترته الرسمية ليعرفك انه ضابط • آه من هؤلاء !

ودخل فانيوشا فأخبره اولينين ان حامل العلم «رب البيت» يريد مقابلته • ثم اردف فانيوشا باللغة الفرنسية قائلا :

ــ المال اساس كل شيء !

ودخل رب البيت • فاذا به يرتدي سترة جركسية ويحمل على كتفها علامة الضابط ، ويلبس في قدميه حذاء انيقا لامعا وذلك امر نادر الحدوث جدا بين اهل القوقاز • والواقع ان ايليا فاسيليفتش حامل العلم يعتبر من اهل القوقاز المتعلمين • سافر الى روسيا نفسها واشتغل بالتدريس • وهو

ميال بطبعه للظهور بمظهر النبلاء • بيد ان اللبيب يدرك بعد قليل ان مظهره المهذب المتأنق المتحضر يخفي وراءه ريفيا لا يختلف كثيرا عن العم بيروشكا • وأكبر دليل على ذلك يداه الغليظتان المشققتان من اثر العمل الشاق ، ووجهه الذي لوحته الشمس •

وقد فطن اولينين الى ذلك ودعاه للجلوس • اما بيروشكا فانحنى لحامل العلم في ادب لا يخلو من تهكم • فرد عليه حامل العلم بهزة من رأسه تشي بالأستهانة •

وكان حامل العلم قد ناهز الاربعين من عمره له لحية صغيرة ، نحيف القوام ، بيد انه لا يخلو من مسحة من وسامة ، وفي وجهه نضرة لا تدل على سنه • وكان واضحا ان الرجل احتفى بمظهره اذ قدم لمقابلة اولينين، لانه خشي ان يظنه الشاب احد عامة اهل القوقاز • فأحب ان يشعره منذ البداية بما له من اهمية خاصة •

وبلهجة تنم عن الاستعلاء ابتسم رب البيت وهو يومىء برأسه الى بيروشكا :

ــ أشهد ان هذا العجوز من أمهر الصيادين ، وهو قدوتنا في كل شيء • ويسعدني ان اراك استطبت معرفته وصحبته •

فقال اولينين :

ــ لقد اتفقنا فعلا على ان نخرج اليوم للصيد •

ــ انا مقدر تشوقك الى الخروج الى الصيد ايها السيد ، ولكن لا بد من بضع دقائق نسوي فيها ما بيننا من امور معلقة •

ــ ما الذي استطيعه لخدمتك ؟

فتنحنح رب البيت وقال :

ــ انت فيما ارى سيد مهذب • وأنا ايضا رجل من فئة الضباط • ولذا أعتقد اننا سنتفاهم بسهولة كعادة السادة المهذبين •

اما عن امرأتي فأرجو الا يعلق بنفسك شيء بسبب صعوبة التفاهم معها • فهي امرأة عجوز حمقاء كسائر نساء عشيرتنا • وأنا لا مانع عندي من تأجير هذا المسكن نظير ستة روبلات في الشهر • هذا ما وضعته في ذهني لو طلب مني أركان حرب الكتيبة تأجيره • اما وأنت الذي تريده

لنفسك ...

وفهم اولينين ان الرجل يريد ان يؤجر الكوخ له بستة روبلات . فبادر بالموافقة في فرح . ثم قدم الى رب البيت قدحا من الشاي ، فرفضه حامل العلم متعللا بالتقاليد الدينية التي تحرم عليه استخدام قدح رجل غريب عن عشيرته . ثم أسرع فأحضر قدحه الخاص من الكوخ ، وجعل يشرب الشاي وهو ما يزال ساخنا جدا ليفرغ منه بسرعة ثم قال :

ــ لا أريد ان أعوقك عن الخروج للصيد . والحقيقة اني مشغوف بالصيد ايضا . ولكني اصيد السمك في الغالب . وبهذه المناسبة أدعوك لزيارتنا في البيت بين حين وآخر لتشرب من خمرنا على حسب عادات عشيرتنا .

وانحنى حامل العلم ثم صافح اولينين وانصرف . ثم طرق صوته سمع اولينين وهو يأمر وينهي بين اهل بيته في حزم . وبعد قليل أبصره من النافذة يجتاز الفناء في ثياب قذرة مهلهلة ، وقد شمر سرواله الى ركبته، وحمل على كتفه شبكة .

وأفرغ العم بيروشكا قدح الشاي في جوفه ثم قال :

ــ يا له من لص ! هل تنوي حقا ان تعطيه ستة روبلات في الشهر اجرا لهذا المسكن ؟ ان هذا غير معقول ! ان افضل كوخ في القرية لا يزيد على روبلين في الشهر . بل اني مستعد شخصيا ان أؤجر لك كوخي بثلاثة روبلات .

ــ شكرا لك . اني أفضل البقاء حيث انا !

ــ ستة روبلات ؟! انك تبذر مالك تبذيرا . الينا بشيء من الخمر يا فانيوشا لنتغلب على هذه الصدمة .

وقبل ان تبلغ الساعة الثامنة خرج اولينين مع بيروشكا بعد ان احتسيا قدحا من الفودكا وأصابا شيئا من الطعام يتقويان به على عناء الطريق . وعند الباب صادفا عربة يجرها ثوران . وكانت ماريانكا هي التي تقود العربة فتظاهر الشيخ انه يريد ان يمسك بها وصاح :

ــ ما أجملك !

فرفعت الفتاة العصا كأنها تهم ان تضربه . ثم لمعت عيناها ببريق

السرور والمرح • فأحس اولينين بالبشر يفيض من قلبه ويملأ الكون كله من حوله •

ورن من ورائهما صوت ماريانكا تستحث الثيران على المسير • ثم شرع بيروشكا في الكلام كعادته وهما يجتازان المراعي والحقول • وكان حديثه ينصب على حامل العلم الذي يمقته من كل قلبه • فسأله اولينين:

ــ لماذا انت حانق عليه هكذا ؟

ــ حانق عليه لانه وغد دنيء • بخيل • وأنا لا احب الاشحاء • انه يجمع المال ويكدسه ، ولكنه سيترك كل ما يملك ولا يأخذ معه شيئا الى القبر • لماذا يتعب نفسه ويجمع المال من حرام وحلال ؟ لقد خاصم أخاه امام المحاكم ونزع منه ملكية بستان • انه يحترف كتابة المواثيق • ويكتبها بخبث ودهاء • ومواطنونا هنا أميون ، فيخدعهم ويغشهم • ولماذا كل ذلك ؟ انه لم يرزق الا بغلام واحد وبهذه الفتاة •

ــ لعله يجمع المال لبائنتها !

ــ اية بائنة ؟ ان الفتاة حلوة وخطابها كثيرون •• ووالدها رجل خبيث ، بلغ من خبثه انه لا يريد ان يزوجها الا من رجل موسر • ويطلب لها مهرا ضخما • ولما طلبها لوكاشكا الفتى الوسيم الشجاع الذي قتل الابركة وهو مولع بالفتاة منذ زمن طويل ، رفض والدها ان يزوجها اياه متعللا بصغر سن الفتاة • ولكني أعلم انه ينتظر صفقة أدسم •

ــ كيف تقول ذلك ؟ اني كنت اتمشى ليلة امس في فناء الكوخ فرأيت الفتاة مع فتى قوقازي يتبادلان القبلات •

فصاح الشيخ :

ــ لا أصدقك !

ــ بل اقسم لك ان هذا صحيح !

فصمت الشيخ قليلا ثم قال :

ــ يا لها من عفريتة ! ولكن من هو هذا الشاب المحظوظ ؟

ــ لم استطع ان أتبين شكله •

ــ هل كانت قبعته بيضاء ؟

ــ نعم •

ـ وسترته ؟ هل كانت حمراء ؟

ـ نعـــم •

ـ وطوله ؟

ـ أطول مني بقليل !

ـ الملعون ! انه هو !

ثم انفجر بيروشكا ضاحكا وهو يقفز سرورا وصاح :

ـ هو بعينه لوكاشكا ! لقد شب هذا الفتى على منوالي • لقد كنت في ايام شبابي زير نساء ! كانت حبيبتي تنام في حجرة واحدة مع امها وامرأة اخيها ، ولكني كنت اعرف كيف أتسلل اليها كالثعبان وأختلي بها • وكانت تنام على اريكة تحت النافذة مباشرة • فكنت أتسلق فوق كتف صديق لي وأدخل من النافذة كالقط وأهبط الى الاريكة • وكانت تحفظ لي تحت الاريكة القشدة والفاكهة وطيبات المآكل لتتحفني بها كل ليلة • ولم تكن هذه الفتاة حبيبتي الوحيدة • وهكذا تكون الحياة !

ـ والان ماذا نصنع ؟

ـ سنتتبع الكلب الى مواطن الدراج وتتربص الى ان يحط فوق شجرة فنطلق عليه النار • وأنت ايها الفتى لماذا لا تجرب حظك مـــع ماريانكا ؟

ـ ألست تبادل لوكاشكا الحب ؟

ـ ان قلوب الفتيات يا بني غريبة الاطوار • والآن صه • حتى لا تسمع الفريسة صوتنا وتهرب ••

وسار الاثنان في طريقهما صامتين •

- ٥ -

في الغابة

شمل الهدوء كل شيء ، وكان الرجلان يسيران جنبـــا الى جنب والمنظر يتغير حولهما في كل خطوة يخطوانها ، وظلت الاصوات الصادرة من القرية البعيدة تخف في سمعهما شيئا فشيئا الى ان انقطعت هــــذه الاصوات تمام الانقطاع ، فلم يعد يطرق آذانهما الا وسوسة الريح في الكلأ ، او حفيف الاعشاب والشجيرات ، كلما جرت الكلاب من تحتها. وكانت الطيور تصوت وتتبادل النداء بين الحين والحين .

وكان اولينين يعلم ان الخطر لا تخلو منه الغابة. لان من عادة الابركة ان يكمنوا في مثل تلك المواضيع المعتمة . بيد انه كان يعلم كذلك ان البندقية وقاء عظيم القيمة لكل من يسير في الغابة على قدميه .

ولم يكن احساسه هذا عن جبن خاص بشخصه ، بل لانه كان يشعر بشعور غيره من الناس الذين كانوا حقيقيين بالخوف لو انهم كانوا في موضعه ذاك . وأخذ يتفحص بناظريه الغابة التي يلفها الضباب الرطب ، وينصت الى تلك الاصوات البليلة الخافتة التي تنبعث في جنباتها ، وقد ارهف اذنيه ، وتوفزت حواسه ، وتقبضت أصابعه على بندقيته . وأحس لذلك كله بنوع من النشاط اللذيذ .

وكان بيروشكا يتقدمه في السير . ويقف بين الفينة والفينة وينعم النظر مدققا في كل بركة ماء وردها حيوان للشرب ، وترك عندها آثار أقدامه عند الورود والصدور . وينبه اولينين الى تلك الآثار في كلمات

قليلة خافتة شأن من يلقي دروسا عملية ، وقد اكتسى وجهه بطابع من الجد غير مألوف فيه حين يكون في القرية . والواقع ان هذا الرجل لا يهتم بشيء ويأخذه مأخذ الجد والرهبة عدا الصيد .

وكان الطريق في وسط الغابة واضحا ، جعل لمرور العربات . ولكن العربات فيما يظهر كفت عن سلوك هذا الطريق منذ زمن بعيد ، فغطى الارض عشب طويل كثيف . وكانت الاشجار على جانبي الطريق ضخمة ملتفة ، تعلوها نباتات كثيرة متسلقة ، فصار من المستحيل ان يخترق النظر التفاف الأشجار التي عششت على جذع كل منها الكروم البرية ، وملأ الحسك الداكن ما تحت الاشجار . وأما الممرات الصغيرة التي قد توجد هنا وهناك في الغابة فتكسوها شجيرات التوت وأعواد القصب ذات الزغب . وبين الحين والحين تبدو آثار أقدام الدراج .

وكان اولينين لا ينتهي عجبه لقوة الطبيعة النامية في هذه الغابة ، لانه لم يكن شاهد مثلها من قبل . فأتمت هذه الغابة الصورة الرائعة التي ارتسمت في مخيلته لبلاد القوقاز الساحرة . فهذه الغابة بما فيها من حياة قوية فطرية نامية ، وما يكمن في ألفافها من الخطر ، وبيروشكا العجوز بجده الذي يناقض شخصيته الهازلة ، وماريانكا بقدها المشوق اللدن الفوار بالحياة ، والجبال الشامخة التي تتوجها الثلوج ، كل ذلك يبدو كأنه حلم من الاحلام .

وفجأة همس له بيروشكا يلتفت نحوه ويرخي قبعته على وجهه :

ـ ها هو دراج قد استقر على الشجرة . افعل كما أفعل .

ثم جثم على الارض وأخذ يزحف على اربع وهو يقول :

ـ انه يكره سحنة البشر .

وبعد قليل وقف الشيخ فوقف اولينين . وأخذ بيروشكا يفحص احدى الأشجار ، وكان فوقها دراج كبير ينق في وجه كلب من كلاب الصيد ينبح بشراسة . وما ان ثبتت عين اولينين على الطائر حتى سمع طلقة بندقية مدوية خرجت من بندقية بيروشكا الكبيرة . ورفرف الدراج بجناحيه ليحلق وقد تطاير بعض ريشه ، ولكنه لم يلبث ان سقط على الارض .

وثار دراج آخر فرفع اولينين بندقيته وصوبها وأطلق النار ، فحوم الدراج في الجو لحظة ثم وقع على الارض . فصاح الشيخ وهو يضحك:

ــ أحسنت ! لقد اصبته في جناحه .

والتقطا الدراجين واستأنفا سيرهما . وقد تفتحت نفس اولينين بتأثير الرياضة والثناء ، فانطلق يتحدث الى الشيخ ويبدي له ملاحظاته على كل شيء يمران به . ثم قاطعه بيروشكا قائلا :

ــ هيا بنا من هنا . لاني شاهدت امس آثار الغزلان في هذا المكان.

وانعطفا داخلين بين الشجر . وبعد نحو ثلاثمائة خطوة دخلا ممرا تكتنفه أعواد القصب ، وقد غطى الماء جزءا منه . وكان بيروشكا الصياد العجوز المتمرس بالغابة اسبق من اولينين في حركاته وتسلله . وسرعان ما وقف بيروشكا أمامه بنحو عشرين خطوة وطأطأ رأسه وجعل يشير بذراعه اليه . فلحق به اولينين . وتبين ان بيروشكا كان يشير الى آثار أقدام .

ــ اترى هذا ؟

فقال اولينين وهو يتكلف الهدوء بقدر الامكان :

ــ انها فيما أرى آثار أقدام رجل .

وتذكر اولينين على الفور ذلك المحارب من الابركة الذي قتله لوكاشكا وكيف انه ولا شك موضع اهتمام عشيرته للاخذ بثأره. ولاحظ ايضا الأسلوب المتوجس الذي يسير به زميله الشيخ . فخاف ان يفصح له عن قلقه بالسؤال ، وظل نهبا للشك . هل هذا الحذر من جانب الشيخ ناجم عن توقع الخطر ام هو مرحلة من مراحل عملية الصيد في حد ذاتها.

وبعد قليل قال له الشيخ :

ــ أوه ! انها آثار أقدامي انا عندما كنت هنا بالامس !

وانطلق الشيخ في طريقه ولازمه اولينين . فوصلا بعد قليل الى وهدة منخفضة من الارض بعد عشرين خطوة تقريبا . فاذا شجرة كمثرى كبيرة ، ظليلة ، وعلى الارض السوداء من تحتها بعر حيوانات لم يزل نديا ، وكانت الكروم البرية تحيط بذلك الموضع من جميع نواحيه ، فهو خير ملاذ يخلد اليه ظبي . وفحص الشيخ البعر ثم قال وهو يتحسر :

ـ لقد كان الغزال هنا هذا الصباح •

وفجأة دوت فرقعة مخيفة على مسافة خطوات قليلة منهما ، ففزعا ، وبحركة سريعة أمسك كل منهما ببندقيته • ولكن الاشجار الكثيفة حالت بينهما وبين الرؤية ، وسمعا صوت تكسر الغصون • ثم تلا ذلك صوت حوافر تجري بسرعة وتتلاشى شيئا فشيئا •

وشعر اولينين بقلبه يكاد يقفز من موضعه ، وراح ينظر بلا جدوى في النباتات الداكنة الخضرة من حوله • والتفت الى الشيخ ييروشكا فوجده ساكنا لا يتحرك وبندقيته لا تزال على كتفه ، وقد ومضت عيناه ببريق غريب وكشر عن أنيابه كأنه تمثال الحنق • ثم غمغم :

ـ أيل ضخم ذو قرون !

ثم رمى بندقيته على الارض وأخذ يجذب شعر لحيته ويسب نفسه :

ـ ما أغباني ! انه خنزير احمق ! لقد كان يقف هنا • وخرج عندما اقتربنا من الممر • كان يجب ان نأتي نحن من الممر لنحصره •

وكان الليل قد اقترب وسادت غبشة الغسق عندما عاد اولينين والشيخ الى القرية وقد نال منهما الجوع والتعب • ومع ذلك كان يشعر ان النشاط يدب في جميع أوصاله •

وكان فانيوشا قد أعد طعام العشاء ، فأكل وييروشكا • وشربا من الخمر ما اشاع في نفسيهما المرح • وبعد العشاء جلسا في مدخل الكوخ ، وطفق الشيخ يسرد عليه أقاصيص حياته ومغامراته التي لا نهاية لها ، سواء في الصيد او الحب ، وحياة الاستهتار التي كان يحياها •

ومرت من امامهما في الفناء ماريانكا رائحة وغادية بين الحظيرة والدار والقبو ، وعليها قميصها الوردي الذي يشي بجمال قدها ورشاقتها العذرية الفياضة بالحيوية •

* * *

وما ان حل اليوم الثاني حتى كان اولينين على أحر من الجمر للخروج الى الصيد • وخرج في هذه المرة وحده ، فذهب الى المكان الذي وجد

فيه هو والشيخ بالامس آثار الايل ذي القرون • وأثار كلبه في الطريق دراجين ظفر بهما بطلقتين • ثم اخذت الدراريج تستيقظ من تلقاء نفسها• فأطلق اولينين ببندقيته أكثر من عشر مرات وظفر بخمسة دراريج • وجعل يجوس خلال الشجر والعوسج ليلتقط صيده فأصابه من ذلك جهد شديد وتفصد منه العرق •

وكان أشق شيء عليه ذلك البعوض الذي كان يتكاثر حوله كلما وقف يحشو بندقيته ، وكان كم سترته الجركسية الواسع ينفعه في طرد ذلك البعوض •

وأمر كلبه ان يكف عن اثارة الدراج لان الدراج ليس طلبته الحقيقية في هذا اليوم • ولكن الكلب العنيد لم يكف عن اثارة الدراج كلما وقع على آثاره وهما في الطريق • فاضطر اولينين الى قتل دراجين آخرين • وكان الوقت قرب الظهر عندما اقترب من الموضع الذي ينشده تحت شجرة الكمثرى الوارفة الظلال •

وكان النهار مشرقا غاية الاشراق ، والسكون مخيما على أرجاء الغابة، والحر شديدا ، فتبددت الرطوبة ، وازدادت هجمات الجيوش الكثيفة من البعوض التي جعلت تحط على وجهه وظهره وذراعيه وكست كلبه الاسود اللون بحلة رمادية • وكانت الحشرات اللعينة تخترق بحمتها سترته وقميصه وتنغرس في لحمه الابيض • فبدأ يساوره الشك في اعتبار تلك القرية القوقازية جنة الله في ارضه • وتصور الاقامة في هذه القرية في شهور الصيف وكيف تكون جحيما يستحيل عليه الاقامة فيه • وفكر في الرجوع من حيث اتى لولا انه خجل من الرجوع عن عزم اعتزمه • ولاسيما حين تذكر ان اناسا من البشر يعيشون في هذه المواضع وفي تلك الظروف عينها طول حياتهم ويروضون انفسهم على احتمال تلك المشاق •

وأثار هذا عزيمته القوية ، فقرر الصمود والتجلد ، حتى انه استسلم للبعوض ينهشه كيف يشاء وقد الغى ارادته ومقاومته فأدهشه بعد قليل من الوقت ان ذلك الاستسلام ينطوي على متعة حقيقية • وان هذه الغابة لا يكمل معناها وسحرها الا بهذا البعوض الكثير المنتشر ، وهذه الرطوبة

والحرارة والعرق المتفصد • فهذه الجيوش الجرارة من البعوض تتلاءم تمام الملاءمة مع هذه الحياة النباتية الخضراء اليانعة المسرفة في النمو ، ومع تلك الاسراب من الطيور والحيوانات الوحشية التي تملأ جنبات تلك الغابة ، ومع هذه الروائح التي تملأ الأنف من اوراق الشجر ، وأعواد العشب والأزهار ، ومن تلك الجداول التي تتشعب من نهر ترك في جميع الاتجاهات ، ومن ثم بدأ يحس بان الذي ضاق به منذ قليل انما هو في مجموعه امر مقبول •

وأخذ اولينين يجوس خلال المكان الذي كان فيه الايل بالامس فلم يجد له اثرا • وكان الكلال قد اخذ منه ، والشمس قد سامتت الرأس فوق الغابة وراحت تصب اشعتها عليه كلما خرج الى ممر • والدراريج التي علقها في حزامه ثقل عليه وزنها ، فأحس بألم في خاصرته • فرقد في مضجع الأيل وراح ينظر في آثار الحياة الطبيعية الهادئـــة من حوله ، وسرعان ما شمله احساس بالطمأنينة والسكينة ، فكأنما خلا ذهنه مـن جميع الافكار ، وأقفرت نفسه من جميع الاطماع والرغبات • وسرت في سريرته موجة من الابتهاج الغامض الذي لا يعرف له سببا خاصا ، وانما فاضت نفسه بمحبة شاملة لجميع الكائنات ، وبلغ ذروة هذه السبحـــة الروحية فأخذ يكلم نفسه على عادته في خلوته منذ صباه :

ــ اني هاهنا كائن متميز تمام التميز عن جميع الكائنات الاخــرى وهأنذا ارقد وحدي حيث كان يقيم من قبل ايل ذو قرون • ولعل انسانا لم يجلس هذا المجلس من قبل او طاف بخاطره ان يكون هاهنا • وها هي الاشجار من حولي عتيقة سامقة ، صغيرة باسقة والكروم البرية تتسلقها وقد تدلت منها عناقيدها • والدراريج تروح وتغدو وتتدافع • ولعل هذه الدراريج المسكينة تشم الان رائحة بنات جنسها التي لقيت مصرعها على يدي •

وعندئذ تحسس اولينين فرائسه ، ثم مسح الدم الذي لوث يده في سترته • وتجمع البعوض وأخذ يطن حول وجهه وفوق رأسه في سحب كثيفة ، فغمغم :

ــ وحتى هذا البعوض الذي يبلغ عدده الالوف والملايين ، كـل

بعوضة منها تطن معبرة عن شيء في نفسها • ان كل بعوضة منها مثل ديمتري اولينين ، تتميز عن كل بعوضة سواها ، مثلما اتميز انا عن كل انسان سواي • ولعل من بين هذا البعوض قادة يهيبون به : «ها هو انسان أبله ساقه الله الينا لنأكله !» •

وخامر اولينين شعور بأنه ليس كالمفروض فيه ، شريفا من نبلاء الروس ، وعضوا من اعضاء المجتمع الراقي في موسكو ، وعلى صلة بهذا الشخص من الوجوه والأقطاب او ذاك ، وانما هو في الواقع بعوضة مثل سائر ذلك البعوض الذي يعيش الآن من حوله :

ــ اني سأقضي في الحياة مدة من الزمن ثم امضي بغير رجعة مثلي مثل ذلك البعوض • او مثل العم بيروشكا • وقد صدق الشيخ حين قال انني بعد أن اموت سوف ينمو العشب والكلأ فوق قبري وهذا ختام كل شيء ! ولكن ماذا في ذلك ، ولم لا ينمو الكلأ فوق حفرتي بعد ان اموت ؟ ليكن ذلك • اما الآن فاني على قيد الحياة فينبغي ألا اضيع فرصة الحياة • ينبغي ان اكون سعيدا ما استطعت • فالسعادة هي غاية الغايات عند كل حي • اجل سأموت يوما وينمو الكلأ فوق حفرتي ثم ينتهي كل شيء • ولكنني لا بد ان احيا قبل ان اموت حياة حافلة على خير وجه مستطاع • ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ هذا هو السؤال !

وأخذ اولينين يسترجع صور حياته حتى ذلك اليوم ، فشعر بالسخط والاستياء من نفسه • وبدا لعينيه انه كان جشعا غاية الجشع في سلوكه، يفرط في حب نفسه وتفضيلها على الناس •

وقلب نظره حينا بين اوراق الشجر الخضراء الداكنة ، وغمرت السكينة نفسه ، فأثار فيه ذلك رغبة للسؤال :

ــ ما هو سر سعادتي في هذه اللحظة ؟ وماذا كان هدف حياتي من قبل ؟ كنت اعيش لنفسي وأتلهف على اشباع مطامعها ورغباتها ولكني لم أحقق لها شيئا تتمجد به او تسعد • مع انني الآن ، في هذه اللحظة ، لا تساورني الرغبة في اي شيء ، وليست بي حاجة الى شيء كي تتبسم سعادتي •

وكأنما غمر وجدانه ضوء جديد ثاقب على حين غرة فقال :

ـ ما انا فيه الآن هو السعادة الحقيقية ولا شك • ان السعادة الحقة في ان يحيا المرء لسواه لا لنفسه • هذه حقيقة لا ريب فيها • ان الشوق الى السعادة شوق أصيل في قلب كل انسان • فالسعادة هي الهدف المشروع للحياة • ولكن هذا الهدف اذا جرب الانسان تحقيقه بالسعي الى المنفعة الشخصية واشباع مطامع الثروة والجاه والنفوذ والترف والعشق ، فانه يتعرض لما يحول دون تحقيق هذه الرغبات ، فينجم عن ذلك شقاء كبير • لماذا ؟ لأن هذه الرغبات والمطامع ليست هي الأهداف الحقيقية الشرعية للانسان • اما الغاية الوحيدة الشرعية للانسان فهي ان يعيش لغيره لا لنفسه • وهذا هو لباب المسألة •

ووجد نفسه مدفوعا للعودة الى البيت كي يطيل التفكير في هذا الاعتبار الجديد ثم يبدأ صفحة جديدة من عمره يفتش فيها عن الفرص لفعل الخير • فنهض وتناول بندقيته وخرج من الدغل الى الممر ، فاذا بقرص الشمس وقد مال عن كبد السماء وتوارى خلف رؤوس الاشجار، فسرت في الجو برودة شديدة ، وكأنما قد تغير المكان ، بعد ان تلبدت الغيوم في السماء وتسربلت الطبيعة بلون رمادي مكفهر • فتلاشى الشعور بالسكينة والطمأنينة وحل محل ذلك التوجس والخوف ، وبدأ يتوهم جموع الأبركة وراء كل شجرة من اشجار الغابة ، وهاله ان يشغل بالتفكير في كيفية الدفاع عن نفسه ،و انه قد يضطر اضطرارا الى قتل عدوه • او لعله يخر صريعا بيد ذلك العدو •

وأسلمته هذه الفكرة الى موضوع الله والحياة الاخرى • وكان قد ترك ذلك الموضوع منذ زمن بعيد ، فاكتأب وقال يحدث نفسه :

ـ أمن الخير ان يقضي المرء حياته في العمل لنفسه ، وهو يعلم ان تلك النفس مقضي عليها بالموت ان عاجلا او آجلا ، فالمنايا راصدات للفتى حيث سلك ؟ اي جدوى في ان يعيش انسان ويموت من غير ان يسدي الى احد نفعا او يقدم للناس جميلا ومعروفا ؟

وتبددت من نفسه كل فكرة تتعلق بالصيد ، وهو يسلك الطريق الذي خيل اليه انه يفضي به الى القرية • وبعد ان هام على وجهه طويلا، وجد مجرى ماء يأخذ من نهر ترك فقرر ان يتتبع ذلك المجرى حتى

لا يضـــل .

وبعد ان سار طويلا بحذاء القناة ، سمع صوت أعواد القصب تتقصف من حوله فجأة فارتجفت فرائصه ورفع بندقيته بحركة لا ارادية . ثم لم يلبث ان تفصد جبينه بعرق الخجل ، عندما اكتشف ان ذلك الصـــوت المخيف لم يكن الا حركة كلبه وهو يطارد بعض الحيوانات . وألقـــى الحيوان بنفسه في القناة وجعل يعب منها .

ومشى اولينين في أعقاب كلبه وفي ظنه انه سيصل بعد قليل الـــى القرية . ولكن جميع الملابسات من حوله كانت تنذر بخطر غامض . لان هبوب الرياح فوق قمم الاشجار اخذ يشتد ، وجوارح الطير تحوم في الجو فوق اعشاشها مروعة ، ترسل صيحات حادة ولم تلبث المزروعات ان قلت شيئا فشيئا ، وحلت أعواد القصب الملتفة محل الاشجار ، وكثـــر ظهور الارض الرملية الجرداء . وكل شيء متسربل بجهامة واكفهـــرار يبعثان الوجوم في النفس ، وتحسس وراء ظهره دراريجة فوجدها قـــد نقصت واحدا سقط من حزامه ، ولم يعثر له على اثر ، ويظهر انه فقده منذ مسافة طويلة . فزاد ذلك من شعوره بالوجوم والفزع ، فجعل يتضرع الى الله ألا يكون هذا اليوم ختام حياته ، لانه لا يريد أن يموت قبل ان ينفذ خطة حياته الجديدة وهي الحياة لغيره وعمل الخير للناس .

وهكذا استولت عليه الرغبة في الحياة ، ليعيشها في سبيل هدف عظيم يبذل في سبيله نفسه .

- ٦ -

كانوا خمسة

وعلى حين غرة أضاء شعاع قوى ظلمات نفسه ، كما تبدد اشعة الشمس ظلمات الوجود ، وطرق اذنه حديث باللسان الروسي ، وسمع هدير ماء نهر ترك الذي ينساب في جريان سريع • ولم يلبث ان رأى على قيد خطوات منه صفحة ذلك النهر القائمة ورمال شاطئيه والبطاح المترامية، وبرج المراقبة في النطاق ، وقد برز فوق مستوى الماء • ثم من وراء ذلك الجبال المترامية وقد انعكس عليها قرص الشمس الاحمر الذي تكتنفه السحب • ولمح عند النطاق وعلى برج المراقبة جماعة من جنود القوقاز • ولاول وهلة استرعى نظره لوكاشكا بقوامه المتين •

ولسبب غير معروف شعر اولينين مرة اخرى بالسعادة تغمر جوانب نفسه ، وقد أدرك ان قدميه قادتاه الى نقطة الحراسة على نهر ترك ، قبالة قرية هادئة تجثم على الضفة الاخرى للنهر •

وحث اولينين الخطى مقتربا من جنود القوقاز ، ودخل علهم كوخهم المشيد باللبن ، بيد ان هؤلاء القوقازيين لم يحفلوا به • ولعل ذلك لانه كان يدخن سيجارة ، وهم يدخنون الغليون ، مما زاد في بون الاختلاف بينه وبينهم • ثم انهم كانوا مشغولين عنه في هذا المساء بموضوع له اهميته لديهم • اذ ان فريقا من الاعداء الحجن ذوي قربى الابركي الذي

قتله لوكاشكا اخيرا ، جاءوا من مقامهم الجبلي ، ومعهم دليل من الكشافين ليتفقوا على افتداء جثة قريبهم المقتول ، كي يأخذوها من يد القوقازيين .

وكان جنود القوقاز في هذه الساعة ينتظرون بلهفة بالغة قدوم قائدهم من مقر قيادته في قرية قريبة . وكان شقيق الابركي القتيل رجلا فارع الطول متناسق البنيان ، له لحية صغيرة حمراء اللون ولم تكن العين تقف كثيرا عند ثيابه المهلهلة وقبعته الرثة ، لان مهابته ورباطة جأشه ، أضفتا عليه جلالا كجلال ذوي التيجان ، وكانت ملامح وجهه تشبه الى حد كبير ملامح اخيه القتيل . وجلس ذلك الرجل في شموخه القرفصاء في الظل ، وانصرف الى تدخين غليونه الصغير ، وهو يبصق الحين بعد الحين ولا يكلف نفسه النظر الى احد من القوقازيين . بل لم يتنازل بالقاء نظرة واحدة على جثة العزيز التي حضر خصيصا من اجلها . وفي الفينة بعد الفينة كان يصدر تعليمات موجزة في صوت أجش ينفذها من يسمعها في احترام واضح .

وكان واضحا لذي عينين انه محارب متمرس ، كان بينه وبين الروس اكثر من لقاء في حومة الوغى من قبل . فلم يكن والحالة هذه يشعر بالفضول للنظر اليهم ومعرفة سلوكهم .

واتجه اولينين الى جثة القتيل يستطلعها متفحصا ، وعندئذ قال شقيقه بلهجة غامضة ، كلمات قليلة ، فأسرع الكشاف الى الجثة وغطى وجه القتيل بسترته . وكانت ملامح ذلك الابركي المهيب قد وقعت من نفس اولينين فاتجه اليه وجعل يسأله عن موطنه وأين موقعه ، ولكن الرجل تغاضى عنه ، وبصق على الارض في ازدراء وأدار له ظهره . فدهش اولينين لان مثل ذلك الابركي الفقير الحال يتعاظم عليه . وبرر الامر امام نفسه بأن الرجل جاهل ، ولا يفهم اللغة الروسية . والتفت الى الكشاف الذي يتولى الترجمة . وكان هذا الكشاف رث الثياب ايضا ، بيد ان لون شعره اسود ، وأسنانه بيضاء ناصعة وعينيه سوداوان متألقتان . ولم يظهر الكشاف ممانعة في التحدث الى اولينين ، وانتهز الفرصة فطلب منه لفافة تبغ ، ثم اخذ يثرثر معه بلغة روسية ركيكة :

ـ ان هؤلاء كانوا خمسة اخوة • وهذا القتيل هو الثالث ممن قتلهم الروس ، ولم يبق من الخمسة الا اثنان ، هذا أكبرهما •• وأشار الى الحجني الصامت ، ثم استطرد :

ـ انه محارب عظيم • له مواقع كثيرة •

وفي هذه اللحظة أقبل لوكاشكا وجلس بجوار اولينين وسأل الكشاف :

ـ من اية قرية انت ؟

فأشار الكشاف الى ممر بين جبلين يبدوان على الجانب الاخر من نهر ترك :

ـ من قرية بين هذين الجبلين • على مسيرة ثمانية أميال تقريبا •

ـ سألتك عن اسم القرية لا عن موقعها •

ـ من سويق سو •

ـ فسأله لوكاشكا في زهو :

ـ هل تعرف رجلا من سويق سو اسمه كرابخان ؟ انه صديقي •

ـ انه جاري • وهو رجل عظيم •

وفي حماسة الحديث مع الكشاف انطلق لوكاشكا يكلمه باللغة التترية • وبعد هنيهة حضر القائد وهو ضابط قوقازي يمتطي جوادا ويتبعه فارسان من القوقازيين • وكان واضحا ان هذا الملازم حديث العهد بالخدمة • نهض له بعض الجنود ممن كانوا جالسين ووقف الواقفون وقفة الانتباه • وتقدم العريف فأدى التعظيم وقال :

ـ كل شيء تمام !

فأوشك اولينين ان يضحك لان هذه الحركات الروسية تبدو عند صدورها من هؤلاء القوقازيين وكأنها مسرحية سيئة التمثيل • ولكن بعد القضاء على هذه الرسميات الشكلية ، بدأ السلوك يتخذ مجراه العادي • ولاسيما لان الضابط من اهل القوقاز انفسهم فاذا به يحدث المترجم الكشاف باللغة التترية في طلاقة تامة • ثم كتب وثيقة سلمها الى الكشاف وتلقى منه مبلغا من النقود • ثم التفت الضابط الى الجنود وقال :

ـ من منكم لوكا جافريلوف ؟

فخلع لوكاشكا قبعته وتقدم من الضابط • فقال الضابط :
ـ لقد ابلغت موضوعك الى العميد • ولا أدري ماذا سيكون رأيه• ولكني على كل حال طلبت الانعام عليك بوسام • ولولا انك صغير السن لطلبت ترقيتك عريفا • هل تعرف القراءة ؟
ـ كلا لا اعرفها •
ـ ولكنك على كل حال فتى شجاع • وأرجوك ان تكون دائما عند حسن ظننا • واجتهد ان تحصل على جواد لتكون من الفرسان •
وأشرق وجه لوكاشكا سرورا بهذا الثناء • وتراجع ثم وضع قبعته على رأسه وعاد الى الجلوس في مكانه بجوار اولينين •
وقام الجنود برفع الجثة بأمر الضابط وأنزلوها الى القارب • وبعد ذلك اتجه شقيقه الى الشاطىء ، فأفسح له الجنود القوقازيون الطريق على غير وعي منهم • ثم قفز الرجل الى القارب ، ورفس الشاطىء رفسة قوية بساقه ، فابتعد الزورق • وعندئذ القى الرجل على الجنود القوقازيين نظرة سريعة ثم سأل الكشاف سؤالا مقتضبا •• فأشار الكشاف الى لوكاشكا • فنظر نحوه الحجني ذو اللحية الحمراء ، ثم اشاح عنه بوجهه الى الشاطىء الاخر • وكانت نظرته القصيرة الى لوكاشكا لا تنطق بالغيظ او الحقد بل بالاستهانة ورفع اولينين صوته يسأل الكشاف :
ـ ماذا كان يقول لك ؟
وتروى الكشاف قليلا ثم ابتسم فكشف عن اسنانه البيضاء اللامعة وقال :
ـ كان يقول لي «الروس يقتلون منا • ونحن نقتل منهم • وهلم جرا » •
وجلس أخو القتيل جامدا كالصخرة يحدق في الضفة الاخرى في استعلاء شديد • اما الكشاف فوقف في الطرف الاخر من القارب يجذف بمهارة ويوجه الزورق ولسانه لا يكف عن الكلام لحظة واحدة •
وشيئا فشيئا اختفى القارب عن الانظار تقريبا ، الى ان وصل الضفة الاخرى • وعندئذ اكتشف اولينين جوادين مربوطين في شجرة عوسج على تلك الضفة • ثم ظهر جماعة من اهل الجبال فتألف منهم موكب صغير

أحاط بالجثة التي حملت على احد الجوادين .

وفي الوقت نفسه كان الجنود القوقازيون في قمة الابتهاج ، تجلجل ضحكاتهم ودعاباتهم . وجلس الضابط في الكوخ ليشرب شيئا من الخمر قبل انصرافه ، وحاول لوكاشكا ان يبدو رزينا وقورا وهو جالس بجوار اولينين ، يعمل خنجره في عصا من العوسج لينتزع لحاءها . ثم لاحظ ان اولينين يشعر بالوحشة والغربة بين هؤلاء الجنود القوقازيين ، فأحب ان يخرجه من صمته ، فسأله بفضول مصطنع ليخلق موضوعا للكلام :

ـ لماذا تدخن السجائر ؟ هل تجد في ذلك متعة ؟

فقال له اولينين في دهشة للسؤال :

ـ انها عادة تعودتها لا اكثر . ولكن لماذا هذا السؤال ؟

ـ سألتك لان الواحد منا نحن القوقازيين اذا أقدم على التدخين تعرض للانتقاد والمتاعب .

ثم رفع لوكاشكا نظره الى الافق وقال :

ـ نحن هنا قريبون من الجبال التي يكمن فيها الاعداء . فكيف يمكن ان تعود الى القرية بمفردك ؟ لقد بدأ الليل يرخي سدوله ، وفي ذلك من الخطر عليك ما فيه . سأذهب معك . ولكن يجب ان تستأذن لي العريف .

ونظر اولينين الى الفتى القوقازي المرح الشجاع الوسيم ، ثم تذكر موقفه الغرامي مع ماريانكا وقبلاتهما عند السياج . وتذكر في الوقت نفسه اقدامه على قتل الابركي ، وسروره وافتخاره بذلك فحزن وقال في نفسه :

ـ واخسارتاه ! فتى مليح كهذا تتشوه نفسه بقتل انسان ، ثم لا يرى في ذلك القتل الا باعثا على الضحك والمرح والابتهاج ! انه جاهل . ليته يتثقف ليزين ذلك الشكل الجميل بنفس جميلة وعقل جميل ، ويعلم ان السعادة ليست في القتل بل في التضحية بالنفس .

وأقبل جندي قوقازي في هذه اللحظة من زملاء لوكاشكا وقال له :

ـ من الخير لك يا صاحبي الا تقابل هذا الحجني مرة اخرى .

فتغابى لوكاشكا وسأله :

ـ ولمـاذا ؟

فغمز الجندي بعينيه وقال :

ـ ألم تسمعه يسأل الكشاف عنك ؟

فرفع لوكاشكا ناظريه الى محدثه والضحك يتراقص فيهما وقال :

ـ فليشكر ربه على انه نجا بجلده سالما !

ولم يستطع اولينين ان يتمالك نفسه فسأله :

ـ لماذا اراك مسرورا هكذا ؟

ـ لاني ظفرت بذلك الحجني !

ـ وهب ان القتيل اخوك ، هل كان ذلك يسرك ؟

فنظر القوقازي الى اولينين نظرة تجمع بين الضحك والاستغراب وكأنه يقول له انه يعد نفسه فوق جميع الاعتبارات الاخلاقية .

ورجع اولينين الى نفسه فقال لها :

ـ اننا مثقفون . ولكن ذلك يحدث لنا كذلك . أليس بعض رجالنا يقدمون على القتل احيانا ؟

- ٧ -

هديــة

وبعد قليل ركب الضابط القوقازي جواده منصرفا ، وتقدم اولينين الى العريف يطلب منه ان يمنح لوكاشكا ترخيصا لمغادرة النطاق • وذلك رغبة منه في تقديم خدمة الى لوكاشكا من جهة وتجنبا لمخاطر عبور الغابة المظلمة بمفرده من جهة اخرى • فأعطاه العريف التصريح المطلوب •

وكان واضحا في ذهن اولينين ان لوكاشكا يسره ان يذهب الى القرية كي يختلس لقاء وقبلة من ماريانكا • واعتبر ذلك عملا من اعمال الخير التي تعهد أمام نفسه بتخصيص حياته لها • ثم انه كان مسرورا بمصاحبة ذلك الفتى القوقازي الضاحك السن اللطيف المعشر •

والواقع انه كان يجمع في مخيلته من غير ان يشعر بين لوكاشكا وماريانكا • وكان يجد في ذلك الاقتران الذهني باعثا كبيرا من بواعث السرور • ولما فطن الى ذلك قال لنفسه :

ــ انه فتى جميل • وهو يحب الفتاة ، والفتاة تحبه • وهي فتاة مليحة ريانة • ولو كنت في مكانه وظروفه لاحببتها •

وفاض قلبه بالحنان وهو يسير بجانب لوكاشكا نحو القرية سالكين دروب الغابة المظلمة في الليل • والحق أن لوكاشكا شعر ايضا باحساس لطيف يغمره ، ويصل بين قلبه وقلب ذلك الفتى الروسي النبيل ، على

اختلاف هذين الشابين في كثير من الامور • فما يكاد يجمع بينهما سوى ان كلا منهما في سن الشباب المتفتح للحياة والشباب ينظر الى الدنيا نظرة حماسية ، وهذه النظرة المشتركة تشتبه احيانا بعاطفة الحب •

وسرى ذلك التودد بين الشابين ، فكلما وقعت أنظارهما على شيء او تبادلا النظرات أحسا برغبة في الانفجار ضاحكين •

وفي الطريق سأل اولينين لوكاشكا :

ـ من أي باب سندخل ؟

ـ ادخل من الباب الاوسط للقرية • اما انا فسوف أرافقك الى المستنقع • وبعد ذلك تستطيع ان تتم الطريق وحدك ، لانه سوف لا يكون أمامك ما تخشاه •

فضحك اولينين وقال بخبث :

ـ هل خطر ببالك اني خائف ؟ ان كنت تظن اني طلبت صحبتك لذلك السبب فشكرا لك ، وعد انت من حيث اتيت ، لاني استطيع ان اعود وحدي •

وكان لوكاشكا يعتقد فعلا ان الشاب الروسي النبيل خائف ، بيد انه حرص على ارضاء اولينين فقال :

ـ كلنا عرضة للخوف ؟ انه شعور طبيعي لا حيلة لاحد منا فيه • حتى نحن القوقازيين نشعر احيانا بالخوف !

ثم انفجرا ضاحكين ، فأدرك اولينين انه يداعبه فقال :

ـ تعال معي الى بيتي كي نسمر ساعة ونشرب شيئا من الخمر ، وفي استطاعتك ان تبيت عندي وتعود الى النطاق في الصباح •

فضحك لوكاشكا ، وقال :

ـ ولماذا أبيت عندك ؟ أتظن انني سأجد مشقة في العثور على مكان اقضي فيه ليلتي بالقرية ؟ ليست هذه هي العقبة • وانما سأعود لان العريف نبه عليّ بالعودة هذه الليلة •

وساد الصمت برهة ، وقد تنبهت في خاطر اولينين صور شتى أثارتها كلمات لوكاشكا الاخيرة ، فقال له :

ـ سمعتك وأنت تغني مع رفاقك في الليلة الماضية ، ورأيتك ايضا •

ـ حقـا ؟

ووجد اولينين نفسه يسأل القوقازي السؤال المباشر :

ـ سمعت انك مقدم على الزواج ، فهل هذا صحيح ؟

فهز لوكاشكا كتفيه وقال :

ـ الواقع ان أمي حريصة على ان تزوجني • ولكني لا استطيع ان اتزوج الا اذا صدر قرار بتثبيتي في الجندية ودخلت سلاح الفرسان •

ـ لست اذن في الجيش العامل ؟

ـ بل في الجيش المرابط • وبيني وبين الخدمة العاملة امد طويل لاني التحقت بالجندية اخيرا ، ثم لا بد لي من جواد كي اصبح فارسا وليست لديّ الوسيلة لشراء الجواد في الوقت الحاضر ، ولذا لا بد من تأجيل موضوع الزواج •

فسأله اولينين باهتمام :

ـ وكم يساوي الجواد في اقليمكم ؟

فقال لوكاشكا في تذمر :

ـ لقد ارتفعت أثمان الجياد كثيرا • ومنذ ايام شاهدنا جوادا في الضفة الاخرى للنهر رفض اصحابه ان يبيعوه بستين روبلا من الفضة • مع انه ليس جوادا من أصائل جياد النوغاي •

وصمت اولينين برهة ثم قال فجأة :

ـ أتقبل ان تكون مراسلتي ؟

ولما بهت الفتى القوقازي ولم يجب ، استطرد اولينين يقول له :

ـ استطيع ان اعطيك جوادا • فعندي في الواقع جوادان • ولست بحاجة الى جوادين • جواد واحد يكفيني •

فضحك لوكاشكا وردد عبارة اولينين قائلا :

ـ «لست بحاجة الى جوادين • جواد واحد يكفيني» • هذا كلام جميل • ولكن لم تمنحني احد الجوادين هدية بغير مقابل ؟ انني استطيع بعون الله ان أدبر أموري بنفسي •

فقال اولينين :

ـ لا تقل هذا الكلام يا رجل ! أترفض حقا ان تكون مراسلتي ؟

وكان اولينين في الواقع قد تحمس كثيرا لفكرة اهداء جواديه الأصيلين الى لوكاشكا ، تنفيذا لخطته الجديدة فيما زعم لنفسه من اسداء الخير .

وساد الصمت برهة وهو لا يدري فيم يفكر القوقازي الوسيم وكان لوكاشكا اول من قطع حبل الصمت قائلا :

ــ يقولون انك غني . فهل تملك بيتا في روسيا ؟

ــ اني أملك عدة منازل في مدن روسية كثيرة .

وبسذاجة سأله لوكاشكا :

ــ هل بيتك كبير ، اكبر من بيتنا ؟

فلم يتمالك اولينين نفسه من الابتسام وقال :

ــ بل اكبر منه بكثير . مساحته تزيد على مساحة بيتكم أكثر من عشر مرات . وهو مكون من ثلاثة طوابق لا من طابق واحد .

وسكت لوكاشكا مرة اخرى وهو يدفع خياله كي يتصور ممتلكات هذا الروسي ثم سأله اخيرا :

ــ وهل عندك جياد مثل جيادنا ؟

ومرة اخرى ابتسم اولينين وقال :

ــ في اسطبلاتي اكثر من مائة جواد . كلها جياد اصيلة ، لا يقل ثمن الواحد منها عن اربعمائة روبل . فهي ليست كجيادكم هذه . جيادنا سريعة الجري من سلالة انجليزية . ولكنني أفضل عليها جيادكم .

ومرة اخرى صمت لوكاشكا مفكرا ثم ابتسم وسأله بخبث :

ــ وما الذي جاء بك الى بلادنا الفقيرة وأنت غني مرفه ؟ هل جئت الى هنا بمحض اختيارك ام مكرها بحكم الخدمة العسكرية ؟

فأجابه اولينين بكل جد قائلا :

ــ بل جئت بمحض اختياري . لاني كنت مشتاقا لمشاهدة هذه الاقاليم التي تختلف عن موطننا ، ولاني ايضا كنت ميالا للاشتراك في حملة عسكرية .

فقال لوكاشكا بلهجة الجد ايضا :

ــ وأنا كذلك متلهف على الاشتراك في حملة عسكرية . وسيتم لي

ذلك في يوم من الايام • أتسمع ؟ هذه بنات آوى تتصايح !

ولم يعلق اولينين على هذه الملاحظة بل سأله :

ـ خبرني • ألا تشعر بشيء من الارتياع حين تقتل انسانا مثلك ؟

فقال لوكاشكا باستخفاف :

ـ ارتياع ؟ وماذا في ذلك مما يدعو للارتياع ؟ هون عليك !

ثم لم يلبث ان انتقل الى الفكرة المسيطرة على ذهنه فقال :

ـ كم أتمنى حقا ان يتاح لي الاشتراك في حملة عسكرية !

فقال له اولينين :

ـ من يدري ؟ لعلنا سنشترك في حملة واحدة قريبا • فان كتيبتنا ستغادر القرية قبل حلول العيد • وكذلك سريتكم •

وصمت لوكاشكا قليلا ثم قال :

ـ وماذا يحمل مثلك على المجيء الى مثل هذه الاقاليم ؟ انك رجل غني يمتلك الدور والخيل والعبيد • ولو كنت في مكانك ما جشمت نفسي اي عناء ولانصرفت بمجموع نفسي الى اللهو والطرب ؟ ما رتبتك في الجيش ؟

ـ انا من طلبة المدرسة الحربية • ولكن رؤسائي طلبوا منحي رتبة الملازم •

فقال لوكاشكا باعجاب :

ـ هذا شيء عظيم • ما لم تكن تبالغ للتفاخر أمامي بمنزلتك • وما لم تكن تجسم لي وصف ذلك • الحقيقة انه لو كانت لي دار كهذه ما غادرتها الى اي مكان على وجه الارض • وهل طابت لك الاقامة في بلادنا الموحشة الفقيرة ؟

فأجابه اولينين بحماسة :

ـ أجل طابت لي الاقامة بينكم •

وكان الليل قد سلخ موهنا منه ، والفتيان يقطعان الوقت بالحديث حتى وصلا الى القرية • ولما اقتربا من المساكن أنسا الى نباح الكلاب وأصوات النساء بعد الظلمة الحالكة في الغابة التي كانت تتردد بين أرجائها صيحات بنات آوى كأنها العويل •

ثم بدت لعينيهما معالم بيوت القرية تتألق منها الانوار • وملأت أنفهما رائحة الوقود المحترق ، والدخان المتصاعد من الاكواخ • وأحس اولينين بحنين الى تلك القرية ، وتأكد لديه انه لم يشعر بسكينة نفسه وطمأنينتها الا بين تلك الأكواخ القوقازية • فصار لوكاشكا في تلك اللحظة قريبا الى قلبه غاية القرب ، لانه فتى تتمثل فيه هذه الجبال ، وتلك الغابة ، وبساطة الطبيعة وقوتها ، وفطرة الاهالي السليمة •

ووصل الشابان الى بيت أولينين • فأخذ العجب من لوكاشكا مأخذه عندما رأى اولينين يدخل الحظيرة على الفور ويخرج منها بجواد كان قد اشتراه وهو في طريقه مع الكتيبة الى القرية منذ اسبوع • ولم يكن يألف ركوبه ، لانه جواد متقدم في السن قليلا ، ولكنه بحالة جيدة • وقدم اولينين الجواد الى لوكاشكا ببساطة تامة •

وصاح لوكاشكا :

ــ لماذا تقدم لي هذه الهدية الغالية ؟ اية خدمة قدمتها اليك حتى استحقها ؟ اني لم أفعل ما يستوجب ذلك •

فقال له اولينين :

ــ لا تقل هذا يا رجل • انما هي هدية متواضعة • ومن يدري ؟ ربما استطعت ان ترد لي الجميل في يوم من الأيام • ولاسيما وفي النية ان نخرج معا في حملة واحدة على العدو •

وشعر لوكاشكا بالحيرة والتردد ، وقال دون ان ينظر الى الجواد :

ــ ولكني لا أفهم معنى لهذه الهدية ؟ ثم ان الجواد غالي الثمن •

فألح عليه اولينين قائلا :

ــ خذه يا رجل • فانك ان لم تأخذه اعتبرت ذلك اهانة •

فتناول لوكاشكا عنان الجواد من يده وقال :

ــ شكرا اذن ! اني في الواقع لم اكن اتوقع منك هذا !

وكان يبدو على اولينين عندئذ سرور بالغ كأنه فتى يافع ظفر بحلة جديدة في يوم عيد ، وصاح ينادي فانيوشا :

ــ احضر لنا شيئا من الجكير يا فانيوشا !

ثم قال للوكاشكا :

ـ اربطه في السياج • انه حصان أصيل سريع العدو • وهيا ندخل لنشرب كأسا بعد عناء السير •

ودخل الاثنان ، وجاء فانيوشا بكأسين من الخمر ، فتناول لوكاشكا احداهما بين يديه ، ورفعها الى فمه فأتى عليها في جرعة واحدة ثم قال:

ـ سأجد بمشيئة الرب وسيلة أرد بها هديتك اليك • انها دين في عنقي • وما اسمك ؟

ـ ديمتري اندريفتش اولينين •

ـ شكرا يا ديمتري اندريفتش • وبورك فيك• وان شاء الله سنكون صديقين صدوقين • والآن وقد تآخينا فقد وجبت عليك زيارتنا في بيتنا• أجل قد لا نكون اغنياء • ولكننا بفضل الله نعرف كيف نحتفي بصديق فاضل • وسوف أخبر أمي بالمعروف الذي صنعته معي • فلا شك انك قد تحتاج الى شيء من الفاكهة او القشدة او انعسل وأنت غريب الدار بيننا • واذا زرتني في النطاق ستجدني على استعداد كي أخرج معـك للصيد ، او أعبر معك النهر للقنص في الجبال ، او أذهب معك الى اية وجهة تختارها •

وصمت قليلا ثم هز رأسه متحسرا وقال :

ـ واخسارتاه ! لقد أصبت منذ ايام قلائل خنزيرا بريا كبيرا • وزعت لحمه على زملائي الجنود • ولو كنت عرفتك وقتئذ وعرفت نبل طويتك لقدمته اليك كله !

فابتسم اولينين وقال له :

ـ هون عليك ! وأشكرك على كل حال •

وعندئذ خفض لوكاشكا صوته وقرب رأسه من اولينين وقال له :

ـ هناك مسألة أريد ان استطلع رأيك فيها •

ـ سلني ما شئت ايها الصديق •

ـ لي صديق حميم اسمه كرايخان • وهو من وجوه قرية سديق سو • وقد طلب مني هذا الصديق ان اذهب معه ذات ليلة فنكمن معا في بعض مسالك الجبال التي يعرفها هو تمام المعرفة ، ويعلم ان اهل الجبال يهبطون منها بقطعان الخيل في طريقها من مراعي الكلأ • فنقطع عليهم الطريق

ونظفر بغنيمه طيبه بأردة • فهل تحب ان تأتي معي ؟ أقسم لك انني لن أخون عهدك •

فهز اولينين رأسه وقال له :

ـ لا بأس • ربما ذهبنا في يوم من الايام •

وكان اولينين يدرك تمام الادراك ان لوكاشكا انما يعبر بذلك العرض الحماسي عن احساسه العميق بالامتنان له •

وكان لوكاشكا قد انطلق على سجيته في الحديث بعد ان زالت جميع الحواجز بينه وبين اولينين • واستمر السمر بين الشابين حتى الهزيع الاخير من الليل • وعندئذ نهض لوكاشكا وصافح اولينين ايذانا برغبته في الانصراف • ولم تكن الخمر التي تجرعها قد أثرت أدنى تأثير على اتزانه • لان اهل القوقاز الفوا احتساء الخمر المحلية منذ نعومة أظفارهم فلا تؤثر عليهم •

وأطل اولينين من النافذة ليرقب سلوك لوكاشكا مع الجواد الجديد الذي صار ملك يمينه • فأبصر لوكاشكا يسير الى الجواد على مهل ، ثم يتناول عنانه ليقوده الى خارج السياج • وفجأة قفز كالهر الوحشي فاستوى فوق ظهر الجواد ، وجمع الاعنة في يده وأطلق صيحة جبلية فانطلق الجواد به •

والحق ان اولينين كان يعتقد ان الفتى القوقازي سيبادر الى التماس لقاء مع ماريانكا قبل ان يغادر القرية ، لتشاطره أفراحه بامتلاك ذلك الحصان ، الذي كان افتقاره اليه عقبة كأداء في سبيل مشروع زواجهما المرتقب • بيد ان الفتى لم يلتفت الى كوخ حامل العلم بل انطلق في سبيله لا يلوي على شيء • ولئن خاب ظن اولينين ، فانه في الواقع أحس ارتياحا شديدا لسبب غامض لان الفتى لم ينشد لقاء الفتاة •

وانعكس ذلك السرور على حركات اولينين وكلامه عقب انصراف لوكاشكا ، فأقبل كالمراهق يروي لخادمه فانيوشا قصة تقديمه الجواد هدية للفتى القوقازي ، كأنما ذلك العمل فتح من الفتوح • وانطلق ايضا يحدث الخادم بخطته الجديدة التي عقد عزمه على انتهاجها • وقد وفقه الله الى اكتشافها في لحظة الهام ، وهو مضطجع يتمرغ في التراب في مجثم ايل وحشي ذي قرون تحت شجرة كمثرى وارفة الظلال !

وبطبيعة الحال لم يجد هذا المذهب الجديد قبولا لدى الخادم فانيوشا، فجعل يتمتم بالفرنسية الركيكة منتقدا تصرفات مولاه المالية .

أما لوكاشكا فتوجه الى بيته ، وقفز عن ظهر الجواد ، وسلم زمامه الى والدته ، وطلب منها ان تضمه الى قطيع خيول القرية المشترك الذي يرعى في الاحراش . ثم استأذنها في الانصراف على الفور لانه مرتبط بالعودة الى النطاق قبل الفجر .

وفهمت شقيقته البكماء مراده ، فأقبلت عليه تحتضنه وتومىء برأسها وعينيها ويديها وحركات جسمها كله ، لتعبر له عن عظيم سرورها . وقالت له فيما قالت بلغة الاشارة ، انها لو رأت ذلك الشهم الذي وهبه الحصان لبادرت الى السجود تحت قدميه ، وتقبيل ركبتيه عرفانا منها بجميله على اخيها الحبيب .

اما والدته فانها هزت رأسها ولم تقل شيئا . لانها لم تستطع ان تفهم الملابسات الحقيقية لتلك الهدية . وظنت بفطنتها الفطرية ان القصة ظاهرة التلفيق . وان ولدها سرق ذلك الجواد من مكان ما خارج القرية ، وأعمال السطو تعتبر في ذلك الأقليم من دلائل الفتوة والبأس . وكان هذا الظن مدعاة لان تفهم ابنتها البكماء وجوب ضم الجواد الى القطيع العام في المراعي قبل طلوع النهار حتى لا يفتضح الامر .

ورجع لوكاشكا الى النطاق وهو لا يكف عن التفكير في سلوك اولينين معه . وقد أدرك من ركوب الجواد انه ليس من الاصائل ذات الانساب المختارة . ولكنه على كل حال لا يساوي أقل من اربعين روبلا من الفضة . وقد وقعت منه هذه الهدية العظيمة موقعا سارا بغير شك ، لانها تعتبر خطوة حاسمة في طريق حياته ومستقبله . ولكنه لم يزل متحيرا لا يدري ما الذي حدا بأولينين الى تقديم هذه الهدية الغالية اليه. وكان هذا الارتياب سببا في عدم احساسه بعرفان الجميل لذلك الصنيع. بل انتابته الهواجس في ذلك الصدد . لانه توقع ان تكون لذلك الشاب الروسي أطماع أخرى خافية . وان لم يدر كنه هذه الاطماع على وجه التحديد .

ان عقله الفطري لا يسيغ بسهولة ان يقدم رجل هدية تبلغ قيمتها اربعين روبلا على الاقل ، لرجل غريب عنه تماما لغير غرض نفعي . ان البر

لا يمكن ان يصل الى ذلك المستوى • ولو ان اولينين كان سكران عندما قدم اليه تلك الهدية لكان سلوكه مستساغا • ولكنه أقدم على ذلك قبل ان يقرب الكأس • فهي ليست هدية اذن ، وانما هي رشوة يريد بها ان يشتري اخلاصه او اغضاءه •

ـ يا له من خبيث مخادع ! انه يستخف بعقليتنا ، ويظن ان اهل القوقاز بلهاء ! سنرى ! لقد استوليت على الجواد وانتهى الامر • وسأكون مفتوح العينين حتى أفوت على هذا الخبيث مطامعه الخفية ! وسنرى في النهاية من منا أذكى من صاحبه فتكون له الغلبة في معركة الدهاء هذه !

وهكذا أسلم التفكير لوكاشكا الى تغيير قلبه على اولينين • ولذلك لما وصل الى النطاق لم يقل لاحد من زملائه كيف حصل على ذلك الجواد • ولكن الزملاء كجميع اهل الريف ألحوا عليه في السؤال فراغ من بعضهم، وقال لبعضهم الآخر انه اشتراه من قرية أخرى • بيد ان الحقيقة لم تلبث ان انتشرت على كل لسان شأن جميع أحداث الريف • ولا بد ان فانيوشا خادم اولينين هو الذي أفشى السر •

واستولت الحيرة على ماريانكا ووالدة لوكاشكا وحامل العلم وسائر من علموا بتلك الهدية العجيبة التي لا سبب لها • وكانت نتيجة هذا العجب التوجس والحذر من اولينين • ولكنهم في الوقت نفسه أكبروا ثراءه الواسع ، بحيث يسخو بشيء ثمين كهذا لشاب غريب •

وقال احدهم :

ـ اسمعت ان طالب الحربية الذي ينزل في بيت حامل العلم منح لوكاشكا حصانا قيمته خمسون روبلا على الاقل ؟ لا بد انه واسع الثراء !

فأجابه آخر :

ـ سمعت • ولكن لا بد ان هذه الهدية ليست بلا مقابل • فمن يدري اية خدمة او صفقة تمت بين الشابين !

وقال ثالث :

ـ طلبة المدرسة الحربية قوم مشهورون بخبث طويتهم ودهائهم وليس من المستبعد ان تكشف الامور عن سر رهيب ، او فعلة نكراء يرتكبها ذلك الفتى الكريم !

وعلى هذا النحو جرت الاحاديث بين جميع من في القرية •

- ٨ -

حياة جديدة

لم تلبث حياة اولينين في القرية ان اصبحت تسير على وتيرة واحدة تشيع في النفس السأم والضجر . اذ كان يقلل من صلاته برفاقه وبرؤسائه الضباط ، لانه كان يلقى معاملة ممتازة باعتباره نبيلا ثريا ، فلا يكلف بالخروج مع الكتيبة للقيام بالتدريبات والاعمال المعتادة . وطلب له قائده الترقية الى رتبة الملازم ، ثم تركه وشأنه الى ان تصل براءة الرتبة فيمارس ما يشاء من العمل على اساس الوضع الجديد . وكان الضباط عموما يعاملونه باحترام وينظرون اليه نظرة الاكبار التي يختصون بها علية القوم، ويتمنون لو انه خالطهم . بيد انه لم يكن يستسيغ العاب الورق ، او المآدب الماجنة الصاخبة التي يقيمها الضباط عادة . ولهذا فهو يتجنب مشاركتهم في الحياة الاجتماعية، كما يتجنب مشاركتهم في اوقات العمل .

وكانت معيشة الضباط الذين يذهبون للاقامة بعض الوقت في القرى القوقازية تسير منذ زمن بعيد على وتيرة مستقرة ، تعتبر من تقاليد الحياة العسكرية في الجيش الروسي . فاذا كان الضابط الروسي يتجرع البيرة بانتظام ويلعب الورق حين يكون مقيما في الثكنات او القلاع ، ويقامر ويخوض حديث المكافآت وبدل السفر وبدل الميدان ، فانه حين يقيم الضابط في قرية قوقازية فليست البيرة ما يشربه بكميات كبيرة ، بل الخمر المصنوعة محليا ، وهي الجكير ، ويهدي أصناف الحلوى المصنوعة بعسل النحل الى فتيات الاقليم ، ومن المستحسن ان يقع في غرام واحدة من القوقازيات الحسان اللواتي يطاردهن الضباط وفي الغالب

يتزوجون منهن !

ولكن اولينين كان له منواله الخاص في الحياة ، ولا يستسيغ بذوقه الفردي ان ينتهج سلوك القطيع العام من الضباط وطلاب الحربية او ابناء طبقته من العلية وهو في موسكو . ولذا نراه في هذه القرية لا يندفع مع التيار الشائع ولا يسف الى تلك الحياة الصاخبة التي يعيشها الضباط في القوقاز من حوله .

فقد ألف ان يغادر فراشه مع اول خيوط الفجر ، فيشرب الشاي وهو واقف على مدخل كوخه يملأ عينيه في روعة الاعجاب من الجبال التي تنعكس عليها اولى شعاعات النهار ، ويجتلي وجه ماريانكا الصبوح وهي تروح لحاجتها في الفناء وتغدو ، ثم يرتدي ثيابا قديمة من الجلد تصلح للصيد . ويضع في حزامه سكينا ماضية ، ويحمل بندقيته ، وجانبا من السجائر والطعام ، ثم يصفر يدعو كلبه . وما تحين الساعة الخامسة حتى يكون في طريقه الى الغابة من وراء حدود القرية . ولا تراه القرية بعدها الا عائدا في نحو الساعة السابعة مساء ، وقد نال منه الجوع والتعب ، تتدلى من حزامه الدراريج ، او يحمل حيوانا آخر ظفر به . ومن يدقق النظر فيما يحمله ، يجد ان الطعام والسجائر كما هي لم تمسها يده . ولو أتيح لاحد ان يفتش داخل جمجمته ، لوجد ان ما فيها من الافكار قد ظل هادئا لم يمس ، لانه يترك نفسه للطبيعة التي حوله فلا يفكر في شيء، ولا يأكل شيئا ، ولا يدخن طيلة الساعات الاربع عشرة .

كان يعود جائعا مكدودا ، بالجسد فقط ، اما روحه المعنوية فيعود بها وقد تجددت وقويت وشمله شعور عميق بالسكينة والسعادة ، ولم يكن هو نفسه يدري ماذا يدور في حناياه وهو بين أحضان الغابة . أهي افكار ام ذكريات ام أحلام يقظة ؟ الارجح ان هذه كلها كانت تختلط . حتى اذا تنبه من سبحاته في بعض الاحيان وحاول ان يتبين ما يفكر فيه وجد انه يضبط نفسه في حلم غريب كأن يكون رجلا قوقازيا يعمل هو وزوجته القوقازية الحسناء في حقله او كرمته . او يرى نفسه رجلا من الحجن يعيش في الجبال . او خنزيرا بريا يهيم بين الادغال . وكان يحلم بهذا كله وعيناه لا تغفلان عن ترقب ظهور الدراج او الخنزير البري او

الايـــل :

اما الامسيات فأصبح من المألوف ان يشاركه فيها العم بيروشكا . يحضر متى أرخى الليل سدوله ، فيأتي فانيوشا لهما بكمية محترمة من الجكير الجيد . ويجلس الاثنان في مدخل الكوخ يتسامران ، ويشربان في هدوء الى موهن من الليل . ثم يفترقان ويأوي كل منهما الى فراشه مطمئن النفس قرير العين .

ومع الفجر ينطلق اولينين الى الصيد مرة اخرى ليعود في المساء ناشط النفس مكدود البدن ، لينعقد مجلس السمر بينه وبين صاحبه الشيخ على كئوس الشراب من جديد ، وهو لا يفكــــر في متعة وراء هذه المتعة .

وفي بعض الاحيان كان اولينين يقضي النهار في بيته على سبيل الراحة او التغيير . فيقضي الوقت لا في مراقبــــة الدراج والغزلان الوحشية ، بل في مراقبة حركات ماريانكا من خلال نافذته او عند مدخل كوخه . يرقبها ويترقبها من غير ان يدري ، ترقب المتعطش اللهفان .

وكانت عاطفته نحوها مزيجا من الاحترام والحب المجرد عن الرغبة ـ او هذا على الاقل ما كان يزعمه لنفسه ـ حبا كحب مظاهر الطبيعة الجميلة الرائعة من جبال سامقة رهيبة ، وأشجار عالية ظليلة وشطئان ندية رطيبة ، وسماء بعيدة الآماد ترصعها النجوم . فلم يخطر بباله قط ان يصل حياته بحياتها او ينشىء بينه وبينها علاقة . اذ كان يرى مـــن المستحيل مثلا ان يكون بينه وبينها مثل الذي بينها وبين لوكاشكا . ومن باب أولي لم يخطر بباله اطلاقا ، ان يحاول معها شيئا من قبيل ما يحاوله ويحققه الضباط وطلاب الحربية من صلات ماجنة شائنة بالقوقازيات ، لان مزاجه الفردي كان يأنف من ذلك الاسفاف الساقط . فقد علم علم اليقين انه ان استبدل بحياة الهدوء والتأمل وما تكفله له من غبطة روحية ، ذلك المجون الحسي الغليظ ، لتردى في حمأة الانحلال وما يعقب ذلك من الندم وعذاب الضمير .

وفضلا عن هذا كان اولينين قد اخذ نفسه بانكار ذاته مع كل انسان، ومعها هي بالذات على الرغم من فتنتها وقربها منه . فوجد لنجاحه في ذلك

الصدد نشوة سرور نفسي . وفي الوقت نفسه كان يحس نحو ماريانكا بشيء من التهيب الغامض العميق ، فلا يستطيع ان يستهين بها تلك الاستهانة التي تسوغ له القاء الغزل المبتذل على مسامعها في نزق الشباب المعهود .

وفي يوم من ايام الصيف كان قد أخلد فيه الى البيت . دخل عليه فجأة احد الشبان من معارفه ، وكان قد التقى به في بعض مجتمعات موسكو . وبدأ ذلك الشاب يكلمه بتلك الرطانة العجيبة التي يستخدمها أمثاله من ابناء العلية المتحذلقين ، وهي رطانة تمتزج فيها لهجة اهل موسكو بالكلمات الفرنسية امتزاجا ليس له نسق معروف :

ـ أوه ! كم انا سعيد يا عزيزي . يا عزيزي الاعز ! أوه لو تعلم كم سرني انك موجود في الوقت الحاضر في هذا المكان ! انظر يا عزيزي الى ما يفعله بنا القدر من المفاجآت اللطيفة ! ها هو ذا يجمع بيننا على غير ميعاد في هذا المكان الموحش الذي لم يكن المرء يتوقع فيه شيئا من الخير ! تصور !

وكان اسم هذا الشاب الامير بيليتسكي . وأخذ يثرثر بصوته المائع، ويروي له قصة حضوره الى القوقاز بجميع تفاصيلها . وكيف انه على سبيل التغيير والتسلية التحق بالكتيبة القوقازية بصفة مؤقتة . وعرض عليه القائد العام ان يكون ياوره . وفعلا سيتسلم منصبه الجديد بعد الحملة . ولم ينس الامير ان يردف ذلك بقوله انه شخصيا لا يهتم كثيرا بذلك العمل .

وقبل ان يترك لاولينين فرصة التعليق استطرد يقول :

ـ ان المعيشة بعض الوقت في هذا الركن الخرب من العالم لا بد ان يقابلها على الاقل كسب هام ينفع الانسان في مستقبله . كأن تكون توطئة او تمهيدا للحصول على وسام او رتبة ، او للنقل الى فرقة الحرس القيصري . وهذا التغيير في المستقبل طبعا ليس لمصلحتي الشخصية . فأنا لا أهتم بكل ذلك ! بل ارضاء لخاطر أقاربي ومعارفي الكثيرين ! اوه يا عزيزي الاعز ! لقد رشحوني للانعام القادم وأوصوا لي بوسام القديسة انا ! اوه يا عزيزي الاعز ! النساء في هذا المكان لا نظير لهن ! أوه ! وما

حكايتك انت معهن ايها العفريت الصغير ! لقد أخبرني النقيب ستارتسيف ـ يا لهمن انسان غبي لطيف طيب القلب ! ـ انك، أوه يا عزيزي الأعز ! ، تحيا هنا حياة الهمج المتأبدين ، لا تختلط بأحد من الضباط • وأنا طبعا أقدر دوافعك الى هذه العزلة جيدا • فمن الذي يسيغ ايها العزيز ان يختلط بمثل هؤلاء الضباط الريفيين العوام ؟ ولكن لن تقاسي من العزلة بعد اليوم ! فهأنذا قد جئت • وسنتقابل كثيرا ونمرح معا • فنحن من عجينة واحدة ! لقد نزلت في بيت العريف • وهناك ـ أوه يا عزيزي الاعز ! ـ فتاة سبحان الخلاق ! ما كل هذا الحسن ؟! اسمها اوستنكا انها ساحرة لعوب تخلب العقول وتسبي القلوب ! أوه يا عزيزي الاعز •

وبعد ذلك انطلق هذا الثرثار يروي له اخبار من هب ودب من ابناء المجتمع الراقي في موسكو وبناته • ذلك المجتمع الذي ظن اولينين انه فرغ منه الى الابد • فها هو يأتي اليه هاهنا في شخص الامير بيليتسكي! والمشهور عن هذا الامير انه لطيف المعشر خفيف الروح • بيد ان اولينين بمزاجه الفردي كان يراه سمجا ثقيل الظل ، بالرغم من وسامة ملامحه وبشاشة وجهه • وأزعجه انه لن يستطيع اقصاء هذا الرجل عن حياته وهو يعيش معه في قرية واحدة • فاضطر لمجاراته في الكلام • ووجد نفسه على غير وعي منه ينزلق الى التحدث بالفرنسية معه • فهما الاثنـــــان الشخصان الوحيدان في القرية اللذان يحسنان الكلام بتلك اللغة في طلاقة•

ووعده اولينين ان يرد له الزيارة في بيت العريف • وما ان خرج بيليتسكي ، حتى أقبل الخادم فانيوشا يعرب عن سروره الفائق بحضور هذا الامير الى القرية • فهو في نظر الخادم نموذج الشباب الراقي المهذب الاجتماعي ، وليس كسيده غريب الاطوار ميالا للعزلة عزوفا عن التمتع بامتيازات طبقته وظروفه الطبيعية •

وما هي الا ايام قليلة حتى كان هذا الامير قد اندمج في القرية وأخذ يعيش معيشة الضباط الاغنياء في اية قرية قوقازية يحلون فيها • وما هو الا شهر واحد حتى كان يقيم حفلات السكر والمجون والعربدة لشيوخ القرية ، وتستمر تلك الحفلات الى طلوع النهار • ولكنه كان يقيم ايضا حفلات خاصة للفتيات يغرقهن فيها بالهدايا ، ويعيث فيهن فسادا ، ثم يملأ

الدنيا بمغامراته معهن !

والعجيب ان الفتيات والنساء راقت لهن طريقته في المعاملة وحملهن هو من جانبه على ان ينادينه دائما «يا جدي» زيادة في الالفة ، ورفع التكاليف .

بل ان الرجال انفسهم والشيوخ احبوا هذا الامير لان القوقازيين يفهمون الرجل الذي يشغف بالخمر والنساء ، ويعجبون به لان تلك علامات الفتوة الفطرية في نظرهم . اما اولينين فطراز غريب غير مفهوم في نظرهم . انه المعدن الغريب الذي تؤدي غرابته وغموضه الى التوجس منه ، والميل الى كراهيته .

- ٩ -

الحسناء في الحظيرة

في نحو الساعة الخامسة صباحا كان فانيوشا واقفا في مدخل الكوخ يشعل السيموفار لصنع الشاي ، ويهوي لاشعال النار بمروحة من نوع غريب ، هي رقبة حذاء طويل من احذية سيده • وكان اولينين قد امتطى جواده ومضى به الى نهر ترك ليستحم • وهي عادة جديدة أنشأها لنفسه في المدة الاخيرة • وجعل الدخان يتصاعد كثيفا من النار المشتعلة • وفي هذا الوقت كانت ماريانكا في حظيرة الماشية تحلب جاموسة • وسمعها فانيوشا تصيح في غيظ شأن من عيل صبرها من البهيمة :

ـ ألا تريد هذه الشيطانة ان تقف ساكنة برهة وجيزة ؟

وبعد ذلك توالى صوت الحلب منتظما رتيبا •

وفي الطريق الواقع امام الكوخ سمع وقع حوافر جواد تقترب في تواثب ينم عن خفة الحيوان ونشاطه • وبعد قليل ظهر اولينين عند الباب فوق ظهر الجواد العادي بلا سروج • وكان ذلك الجواد رشيقا أشهب اللون يتألق في بكرة الصباح الندية بالندى كما يتألق كل شيء وقد خرج من وسن الطبيعة الى صحوة النهار • وأطل رأس ماريانكا البديع من الحظيرة وقد علاه منديل احمر اللون • ثم لم يلبث ذلك الرأس الجميل ان اختفى فجأة كما برز فجأة •

وكان اولينين في تلك الساعة يلبس قميصا احمر اللون من الحرير ، وسترة جركسية بيضاء اللون ، وحول خاصرته حزام عريض من الجلد

يتدلى منه خنجر ، وفوق رأسه قبعة عالية ، وكانت جلسته على صهوة جواده العالي المبتل بماء النهر في وضع رشيـــق لا شك في انه كان يقصده عن عمد .

وانحنى اولينين وهو راكب ليفتح الباب . فتهدل شعره المبتل فوق وجهه الوضيء الذي يفيض نضرة وحيوية . وكان واضحا انه يعتقد في نفسه الوسامة والرشاقة وخفة الحركة كالمحاربين القوقازيين ، او هو أشبه الناس بهم . ولكن ظنه هذا كان يفتقر الى اساس متين . فكان حسبه ان يرمقه اي قوقازي اصيل بنظرة واحدة ليدرك انه بازاء جندي روسي يرتدي زي القوقاز بحكم العمل ليس الا . فهو دخيل غير أصيل .
وما ان أدرك اولينين ان الفتاة أطلت برأسها من حظيرة الماشية حتى زادت حركاته رشاقة بصورة استعراضية ودفع الباب على مصراعيه ، وجذب الاعنة وطرقع بالسوط واقتحم الفناء كمن غزا حصنا عنوة واقتدارا ، ثم صاح في بهجة وهو حريص ألا ينظر الى باب الحظيرة :

ــ أفرغت من اعداد الشاي يا حبيبي فانيوشا ؟

وراقه ان جواده الاصيل وقف يتواثب في الفناء ويضرب بقائمتيه الهواء ، وكل عضلة من عضلات جسمه البديع التكوين تنتفض كمـــن يضيق بالاحتباس ، ويتحفز للانطلاق . فهو جواده ، وفي حصول جواده على نظرة اعجاب من ماريانكا فخر ينعكس عليه ويفعم بالسرور فؤاده .

وعلى عادة فانيوشا أجابه بالفرنسية الركيكة :

ــ كل شيء قد أعد .

ومن غير ان يدير اولينين وجهه ، أحس في دخيلة نفسه عن طريق حاسة غامضة ان ماريانكا ترقب حركاته من داخل الحظيرة . فغالب رغبته في ان يملأ من حسنها ناظريه . وتأهب للقفز من فوق جواده ، فخانته رشاقته وأوشك ان يسقط . وكان اول هم له ان التفت من غير تدبر الى ناحية الحظيرة ، فاطمأن عندما وجد بابها خاليا لا يطل منه رأس ماريانكا . ولكن صوت الحلب كان مسموعا مستمرا يدل على انها لم تزل هناك .

ودخل اولينين الكوخ ثم غادره بعد قليل فاتخذ لنفسه مكانا في ذلك الجانب من المدخل الذي لم تكن أشعة الشمس قد غمرته بعد ، وقد جلب

في يده غليونه وكتابا يقرأ فيه وجعل يحتسي أكواب الشاي •

وكان في نيته ذلك اليوم ألا يغادر داره قبل ساعة الغداء • فينفق الوقت في كتابة الرسائل التي تراكمت وطال ارجاؤها • ثم عز عليه ان ينهض من مكانه هذا في مدخل الكوخ المكشوف ليجلس الى مكتبه في الداخل ، كأنما جدران الكوخ أسوار سجن كريه •

ورأى وهو جالس اولنكا تشعل موقدا ، ثم أبصر ابنتها ماريانكا تسوق الماشية الى الخارج ، ثم تعود فتجمع الروث الذي تصنع منه أقراص الوقود وتكومه على طول السياج • وظل اولينين يتشاغل بالقراءة في الكتاب • ولكنه لم يفهم حرفا واحدا مما كان يقرؤه • لأنه كان مشغول الذهن والعين باختلاس النظر الى حيثما أحس للحسناء الريفية وجودا • وكانت لا تكف عن الحركة في الفناء • فلم تكف عيناه عن تتبعها ، وهو حريص حرص الشحيح ألا تفوته لفتة من لفتاتها ، سواء تبخترت في الظل الرطيب الذي يسقطه هيكل الكوخ على الفناء ، ام برزت الى الضوء المتراقص الوضاح ، حيث تتألق كزهرة الزنبق بقامتها الفينانة ، وقد اكتست ذلك الثوب الزاهي • وكان يشوقه على وجه الخصوص ان يرى تثني غصنها الناعم الأملود ، وهي تنحني على الأرض في رشاقة ونشاط • فاذا بصدرها الناهد يهتز كالثمر الناضج تحت قميصها الوردي الذي يلف نحرها ، فيكاد النحر يضيء من تحت الغلالة ويشق بأنواره ما ضرب عليه من حجاب • ثم تنتصب واقفة فتهتز الثمرتان الناضجتان ، وتحتجان مرة اخرى على ضيق الاسر •

وكانت ترمقه احيانا بمقلتيها السوداوين فتلمح اشتغاله بشأنها ، فيفيض السرور من عينيها ابتهاجا بما تراه من سطوة جمالها ، وان لم يفتها ان تزوي ما بين حاجبيها اللذين أبدع الخالق رسمهما •

وكان ذلك حريا ان يستمر الى ما شاء الله ، لولا ان دخل الامير بيليتسكي الفناء صائحا صاخبا وقد ارتدى كسوة ضابط قوقازي :

ــ ما هذا يا اولينين ؟ هل استيقظت منذ وقت طويل ؟

فوقف اولينين يصافحه وهو يقول له :

ــ عجبا لامرك يا بيليتسكي ! كيف استيقظت مبكرا هكذا ؟

فهز بيليتسكي كتفيه في ميوعته المعهودة وقال :
ــ لم تكن لي في ذلك حيلة . اضطررت للنهوض مبكرا والخروج في هذه الساعة .
ــ ما الخبر ؟
ــ اننا سنقيم في هذه الليلة حفلا راقصا .
وهال اولينين ان يرى بيليتسكي يلتفت بكل بساطة نحو المعبودة المرهوبة ماريانكا ويسألها بلا حرج على الاطلاق :
ــ طبعا ستحضرين الليلة الى بيت صاحبتك اوستنكا يا ماريانكا ؟
وطأطأت ماريانكا رأسها ، وتشاغلت بعملها كأنها لم تسمعه ، ثم لم تلبث ان اتجهت الى كوخها منتصبة القامة ، رافعة الرأس في مشيتها الجادة التي تكاد تشبه مشية الرجال .
وهتف بيليتسكي بصوت عال كي تسمعه الفتاة :
ــ ان العزيزة الصغيرة ذات خجل وخفر !
ثم التفت وقال لاولينين هامسا :
ــ انها خجلانة منك انت ايها النفور المتوحش !
وتجاهل اولينين هذا التعليق وسأله :
ــ لم أفهم ماذا تعني . ولماذا تضطر لمبارحة الدار حينما تقررون اقامة حفلة راقصة ؟
ــ ذلك ان الحفلة ايها العزيز ستقام عند الفتاة اوستنكا ، في منزل ربة الدار التي نزلت فيها . وأنا أدعوك لحضورها . وحفلات الرقص هاهنا كما تعلم لا بد لها من صنع فطيرة كبيرة ومن حضور جمع من الفتيات .
وبدهشة سأله اولينين :
ــ ولكن ما الذي سنفعله في هذه الحفلة ؟
فنظر اليه بيليتسكي وأقفل احدى عينيه بطريقة ذات مغزى ثم طوح رأسه في اتجاه الكوخ الاخر الذي توارت فيه ماريانكا عن الانظار وقال :
ــ أتسأل حقا ماذا سنفعل ؟ دع التظاهر الكاذب !
فتجهم وجه اولينين . وخشي بيليتسكي ان يغضب فأسرع يترضاه قائلا :

ـ اسمع ! انا لا يمكن ان ينطلي عليّ هذا الكلام .
ـ اي كلام تعني ؟
ـ أن تكون يا اخي معها في بيت واحد ولا يكون بينك وبينها شيء . انها تحفة . آية من آيات الجمال . وثمرة من ثمرات الانوثة الناضجة ما أجملها !
فهتف اولينين في حماسة :
ـ ما أجملها ؟ اني لم أر في حياتي ، ولا يمكن ان أتصور امرأة في الدنيا حازت من محاسن الجمال ما حازته هذه الفتاة !
فزادت دهشة بيليتسكي ونظر اليه متسائلا :
ـ وماذا اذن يحول بينك وبينها ؟
ـ قد ترى الامر ايها الصديق بعيدا عن التصديق . ولكن هذه هي الحقيقة وربي . اني منذ حللت هذه القرية قد جعلت بيني وبين جميع النساء سدا . ولست نادما على هذه الخطة . فلا خير في عقد صلات مع نساء من معدن غريب عنا . والشخص الوحيد الذي ربطتني به آصرة في هذا الاقليم هو العجوز بيروشكا . فعلى اختلاف عمرينا وثقافتينا وطبقتينا وكل شيء من المكونات للشخصية الاجتماعية ، تربطني به هواية وحيدة مشتركة . فكلانا شغوف بشيء اسمه الصيد .
ـ رويدك ! اتسأل ما الذي يجمعنا بهاتيك النسوة ؟ يجمعنا بهن ما ركب في الذكر والانثى من طلب الجنس الآخر . وما الذي يربطني انا مثلا بامرأة من طراز أماليا ايفانوفنا ؟ شيء واحد نطلبه عندهن مهما اختلفت ألوانهن وجنسياتهن ! وقد تعترض على ذلك بأن حظهن من العفة ضئيل . وهذا صحيح . ولعله من الافضل ان يكن هذا ! وللظروف الحربية مقتضياتها ..
فقال اولينين بانكار :
ـ انا لا اعرف من هي أماليا ايفانوفنا . ويخيل اليّ انها امرأة من طراز لم يتفق لي الاتصال به في يوم من الايام . فلا أعرف كيف أعامل من على شاكلتها . وأنا لا اعرف كيف أعامل امرأة لا أكن لها احتراما . أما أولئك القوقازيات فأنا احترمهن واحترم فيهن الفطرة النقية !

فهز بيليتسكي كتفيه في استخفاف وقال :

ــ احترمهن يا اخي ما شاء لك الاحترام ! ومن ذا الذي يمنعك ان تشبع منهن احتراما ، وتكتوي منهن حرمانا ؟

ولم يلق اولينين بالا الى تهكم صاحبه ، لان وجدانه كان قد استثير في اتجاه هذه المسألة ، فاندفع يقول :

ــ لا أجهل انني مختلف عن الناس . أعلم اني شاب . ولكن على اساس هذه المبادىء المباينة لمعظم الناس تبلورت حياتي . وليس في نيتي ان انبذ هذه المبادىء الان . ثم ينبغي ان تعلم اني لا يمكن ان اعيش في هذه المنطقة على نحو ما تعيش انت . لان طبيعتك مختلفة عن طبيعتي . ونظرتك الى الناس مختلفة عن نظرتي . وثق انني سعيد كل السعادة بهذا النهج الذي اتنهجته في حياتي هذه . ولذا يسرني ان ارى في أولئـك الفتيات شيئا آخر غير الذي تلتمسه انت عندهن !

وكأنما كان بيليتسكي يسمع هذيان مجنون ، فقد هز كتفيه وقال ضاربا صفحا عن كل ما سمعه من اولينين :

ــ اقبل دعوتي على كل حال وتجشم المجيء الليلة الى مسكني . فان ماريانكا ستكون بين الحاضرات . وسأتولى انا بطريقتي الخاصة عقد المعرفة بينكما يا أخيب من انجبته المدرسة الحربية ! تعال ، واذا وجدت انك سأمان ففي وسعك ان تنصرف في اي وقت .

ــ اني بصراحة اشتهي الذهاب الى هذه الحفلة . وليس السبب ما أخشاه منها ، بل أخشى على نفسي الفتنة . فان الاغراء شديد !

فصاح بيليتسكي في مجون :

ــ تعال ولا تخف ، وسأتولى انا السهر على عفافك ! عدني بشرفك ان تأتي الليلة عندي .

ــ قلت لك اني اتمنى ان آتي . ولكني في الواقع لا أعرف بصورة واضحة ماذا سنفعل .

ــ أف لك ! ليس هذا من شأنك ! عليك ان تحضر وكفى . أرجوك .

ــ ليكن . قد أحضر !

فضرب بيليتسكي كفا بكف ، وقال :

ـ ما أعجب امرك ! حشد من أشد نساء الدنيا فتنة ، يندر ان يجتمعن في مكان آخر على وجه الارض في وقت واحد ، ولسن بالمستعصيات ، وفي وسط هذا الفردوس الأرضي تعيش راهبا ؟!

وأراد اولينين ان يغير موضوع الكلام فقال :

ـ سمعت اننا سنقوم قريبا بغزوة في بلاد التتار !

فضحك بيليتسكي وقال :

ـ لم أسمع بشيء من هذا .

واضطرب الحديث بينهما بعض الوقت ثم انصرف بيليتسكي .

* * *

ولما أزفت ساعة الاصيل بدأ اولينين يهتم بالتفكير في تلك الحفلة ، لأن الدعوة التي تلقاها اقلقت خاطره ، وأزالت عنه سكينة نفسه . انه يشعر برغبة شديدة في الذهاب . ولكن تصوره لما يمكن ان يحدث في الحفلة جعل فكرة الذهاب تبدو لعينيه سخيفا للغاية، بل مزعجا الى حد ما. لان الحفلة لم يكن بين المدعوين اليها احد من رجال القوقاز ، ولا من النساء العجائز . وانما هو جمع من شباب الضباط الروس ، والفتيات القوقازيات الحسان الصغيرات السن . فماذا يمكن ان يجري في جو حفلة كهذه الحفلة ؟ وكيف يبرر أمام نفسه وجوده هناك ؟ وكيف يكون سلوكه بين هؤلاء الماجنين ؟ وأية صلة يمكن ان تنشأ بينه وبين اولئك الصبايا القوقازيات ؟

وأوحى اليه بكل هذه الخواطر ان بيليتسكي سبق له ان حدثه حديثا مستفيضا عن علاقات داعرة غريبة تتم تحت ستار من التحفظ الظاهري .

وأخذ يفكر في ان كوخا واحدا ، بل ركنا واحدا من كوخ سيجمع بينه ـ في ذلك الجو الماجن المتحلل ـ وبين ماريانكا . فلا بد له اذن من التحدث اليها . ولكنه استهول ذلك لان هيبتها وحسنها الباهـــر يحيطانها في نظره بسياج لا يخرق .

ـ عجبا ! ولكن بيليتسكي كان يتحدث عنها وعن تعريفه بها كأنما ذلك امر ليس أيسر منه في الحسبان ! أمن الممكن ان ينظر بيليتسكي الى

ماريانكا بهذه الاستهانة ، ويعاملها بهذا الهوان ؟ ان ذلك لمن اغـــرب الامور ! ومن الافضل لي ألا أشهد بعيني شيئا كهذا . فتلك أمور فظيعة وضيعة يقتلني كمدا أن أراها . ثم ما جدوى هذا التبذل والمجون ؟ ولكن ألا يحسن ان ارى بعيني ما سيحدث بالضبط ؟ ألا يعنيني ان ارى كيف سيعاملون ماريانكا ، وكيف سيكون سلوكها معهم ؟ ثم ألم ارتبط بشبه وعد بازاء بيليتسكي ؟

وأمام هذا الاضطراب والتردد غادر البيت ، وفي نيته ان يتجول على غير هدى الى ان يستقر على قرار . ولكن قدميه قادتاه بغير تفكير الى البيت الذي ينزل فيه بيليتسكي ، ووجد نفسه يطرق الباب .

والكوخ الذي يقيم فيه الامير بيليتسكي لا يختلف في شيء تقريبا عن كوخ اولينين . فهو مرتفع عن الارض بمقدار خمس درجات فوق اعمدة من الخشب وبه غرفتان . وفي الغرفة الاولى طنافس وأرائـــك ووسائد وأغطية ، وقد نسق كل ذلك تنسيقا ينم عن ذوق جميل ، على الطريقة القوقازية . اما الحجرة الاخرى الداخلية ففيها موقد كبير لطهو الطعام بني بالآجر ، ومنضدة وأرائك وأيقونات . وبالقرب من ذلـــك السرير العسكري الصغير ، وكذلك كيس الثياب الذي يستعمله الضباط . وقد علقت على الجدار اسلحة بيليتسكي ، وصفت على المنضدة ادوات الزينة . وكان بيليتسكي عندما دخل اولينين مستلقيا على فراشه العسكري بثيابه الداخلية يطالع رواية الفرسان الثلاثة . فلما دخل اولينين قفز من فراشه ورحب به ترحيبا جما ثم قال :

ــ ان المجموعة كلها منهمكة في اعداد الوليمة . اتدري ما هي المواد التي صنعت منها الفطيرة؟ انها مصنوعة من الدقيق الابيض الفاخر المعجون بالقشدة ومحشوة باللحم والزبيب . ولكنك لن تتصور الواقع حتى ترى بعينيك الحركة الناشطة لاتمام كل شيء على احسن وجه في فناء الكوخ .

وأطل الشابان من النافذة . فاذا هرج ومرج ، وفتيات غاديـــات رائحات ، وهن منهمكات بكل همة في أعمالهن الصغيرة . وصاح بهن بيليتسكي :

ــ ألم تفرغن من صنعها بعد ؟

ـ حالا حالا !

وصاحت اخرى في دلال ومجون :

ـ ولماذا تسأل هكذا في لهفة ؟ هل شعر جدي بالجوع ؟

فانفجر الجميع ضاحكات متثنيات • وأقبلت اوستنكا الى داخل الكوخ تطلب صحافا • وكانت فتاة غضة بضة لدنة قصيرة القامة متوهجة الوجنتين ، وقد شمرت عن ساعديها الناضرين ، فانقض بيليتسكي عليها وضمها اليه وقبلها بشراهة • فانفلتت منه الفتاة وهي تصيح متماجنة :

ـ ابعد عني والا وقعت مني الصحاف وتحطمت ! ألست خائفا على الصحاف ان تتحطم ؟ يا لك من ••

ثم التفتت فجأة الى اولينين الذي كان قابعا في الركن منزويا ينظر الى ما يجري في استنكار ، وقالت بمجون :

ـ وأنت ؟ أليس من الافضل ان تترك الخمول وتأتي لتساعدنا • ساعد الفتيات • فسوف لا تندم على مساعدتهن • ولكن لا تنس ان تحضر معك شيئا من الحلوى لتطيب نفوسهن ••

فغمز بيليتسكي بعينه وسألها :

ـ وهل حضرت ماريانكا ؟

فاهتز حاجباها وهي تجيب :

ـ طبعا حضرت ! وأحضرت معها الدقيق •

ولما انصرفت الفتاة التفت بيليتسكي الى اولينين ، وقال :

ـ ألا ترى انه لو اخذ احد هذه الفتاة اوستنكا فخلع عليها من الثياب الانيقة ، بعد ان تتعهدها المواشط بالتنظيف والتشذيب والصقل، لكسفت شمسها شمس كل حسناء من حسان موسكو؟ اني أذكر ان عميدا تزوج قوقازية منذ سنوات ، فكانت حديث جميع الاوساط بجاذبيتها وسحرها • كان اسمها بورشتشيفا • لا أدري من اية قرية !

ـ اني لم أر بورشتشيفا هذه • ولكني على كل حال لا أعتقد ان زيا يصلح للقوقازيات افضل من زيهن هذا •

وكلف اولينين مراسلة بيليتسكي بشراء كمية من الحلوى ليهديها الى الفتيات • ثم جلس بجوار النافذة يشاهد ما يجري في الفناء • وتركه

بيليتسكي ونزل اليهن . وعندئذ كثر صياح الفتيات وضجتهن ، لانه كان يمد يده على هذه وتلك ، ويدغدغ جنوبهن ، ويقرص خدودهن وأذرعهن التي شمرن عنها الاكمام ، فبدت بلون الورد والشهد . ثم اجتمعت الفتيات عليه يضربنه ضاحكات ، فعاد الى الكوخ وهو يصرخ صراخا مصطنعا ويصيح :

طردنني من الجنة !

وبعد قليل حضرت اوستنكا ودعت الشابين في وقار مموه كي يذهبا الى الكوخ الآخر حيث أعدت الوليمة على خير وجه ممكن .

ودخل الاثنان الكوخ فاذا الوسائد والارائك قد صفت بحذاء الجدران .. وغطيت المائدة بمفرش صغير ووضعت عليها قنينة كبيرة مملوءة بالجكير ، وطبق من السمك المملح . وبجوار الموقد وقفت مجموعة من الفتيات حاسرات الرؤوس وقد ارتدين الصدارات المزركشة بالقصب ، وهن يتغامزن ويتهامسن ثم ينفجرن ضاحكات . وتلفت اولينين يبحث بينهن عن ماريانكا ، فوجدها واقفة بين تلك الباقة من الزهرات اليانعات الجمال . فأحس بالاستياء يخامر أعماقه ، لالتقائه بمعبودته في مثل هذا الظرف الذي يكتنفه المجون .

وكأنما اراد ان ينتقم من نفسه لتورطه في هذا الموقف ، فقرر ان يخلع العذار بقدر المستطاع ، ويحذو حذو بيليتسكي في كل شيء .

لقد وجد في ذلك أضمن وسيلة لتجنب سخرية هذه المجموعة من الفتيات اللواتي يتوقعن ولا شك من شاب مثله ان يكون جريئا ساطيا متحللا من جميع الاعتبارات الاخلاقية . وهو اذا استطاع ان يغفر لنفسه الابتذال ، فلن يستطيع تحمل سخرية الفتيات وازدرائهن اياه .

وتقدم بيليتسكي من المائدة وهو يتصنع الوقار . ولكن كان من الواضح انهلا يشعر بحرج لفرط ثقته بنفسه. وقد بدأ يشرب كأسا مترعة من الخمر نخب اوستنكا ، ودعا الجميع الى شرب نخبها، فقالت اوستنكا:

ـ ان البنات عندنا لا يشربن الخمر !

ولكن فتاة من بينهن توارت وراء جارتها وصاحت :

ـ بل نشربها ولكن ليست صرفا ، لاننا نمزجها بالعسل .

وفي هذه اللحظة حضر مراسلة بيليتسكي حاملا الحلوى • فأمره ان يأتي بمقدار من العسل • وسرعان ما جاء المراسلة بقدح كبير من الشهد• فتولى بيليتسكي مزج الخمر بالشهد ، ثم جعل يصب بنفسه الخمر في الاقداح ، كما أردف ذلك بأن نثر على المائدة الكعك الفاخر ، وما ان انتهى ، حتى اخذ يمسك الفتيات في جرأة ، ويجلسهن الى المائدة ، ويقدم اليهن الكعك بنفسه •

واتجه اولينين بنظره نحو ماريانكا عن غير قصد ، فأدهشه ان يرى كيف ان يدها البضة قد أطبقت على كعكتين لذيذتين من الكعك المطيب بالنعناع ، وكعكة اخرى سمراء اللـــون ، وكانت حيرى لا تدري ماذا تفعل بها •

ودار الحديث في الحفلة متشعبا وكل يتحدث بما يحلو له ، يستمر حينا وينقطع حينا آخر ، رغم ما لوحظ على اوستنكا وبيليتسكي مـــن انطلاق ورغبة في اشاعة المرح بين الجماعة ، فأثر ذلك في اولينين ممـــا جعله يضطرب ويحاول التفكير في موضوع يشترك به في الحديث ، لانه كان يشعر في قرارة نفسه انه يثير فضول الجماعة بصمته وانزوائه ، بل لعله اعتقد انه بمسلكه أضحى موضع سخريتهم •

وظهر خجله واضحا اذ صبغت الحمرة وجنتيه ، وخيل اليه ان ماريانكا كانت تشعر بالسآمة بل بالضيق ، فقال يحدث نفسه :

ـ أغلب الظن انهن يأملن ان نعطيهن شيئا من النقود • ولكن كيف نفعل هذا وما هي افضل وسيلة لتنفيذها والخروج من المأزق ؟

- ١٠ -

الخائف

بر بيليتسكي بوعده في التعريف بين ماريانكا وأولينين فقال :

ـ هل هذا يليق يا ماريانكا ألا تعرفين من ينزلون في دارك ؟

فأجابت ماريانكا وهي ترمق اولينين بنظرة تنطوي على عتاب :

ـ وكيف يتسنى لي ان أعرفه وهو لا يزورنا ؟

فاحمر وجه اولينين خجلا وخفق قلبه خفقانا شديدا ، وفي غمرة هذا الارتباك انشأ يقول من غير تفكير :

ـ وكيف أدخل داركم وأنا اخاف أمك ؟

ـ تخاف أمي ؟

وضحكت الفتيات ، فقال بحماسة :

ـ نعم أخافها • فقد زجرتني زجرا عنيفا في المرة الوحيدة التي دخلت فيها بيتكم لاتفاهم على السكنى •

فضحكت ماريانكا ، ونظرت اليه نظرة بجانب وجهها وقالت :

ـ وهل كان هذا كافيا لالقاء الرعب في فؤادك ؟

وكانت هذه اول مرة يرى فيها وجه معبودته كاملا ، ورأسها عاليا ، لانها في جميع الاحوال السابقة كانت تغطي شعرها وجانبي وجهها بمنديل • اما الآن فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك انها أجمل فتيات تلك القرية •

اما اوستنكا فهي صبية مليحة لدنة الجسم ، ربعة القامة ، وردية اللون ، عيناها عسليتان ضاحكتان ، وثغرها يفتر دواما عن الابتسام •

ولسانها لا يكف لحظة عن الثرثرة • في حين كانت ماريانكا على نقيضها• ليست خفيفة الظل جذابة فحسب ، بل جميلة جمالا حقيقيا • وقد يرى بعض الناس ان معالم وجهها غلامية اقرب الى ملامح الرجال ، ولا تخلو من خشونة اللفظ والاشارة ، ولكن يغطي على كل ذلك ما وهبها الله من قامة رشيقة فارهة ، وصدر ناهد ، وشباب بض ، وعينين لوزيتين تنطلق منهما النظرات كالسهام المسمية من بين أهداب وطفاء ، ومن قوسي حاجبيها السوداوين •

ونادرا ما كانت تبتسم • فاذا ابتسمت كانت ابتسامتها بالغة الفتنة • وعندما لا تبتسم ، تبتسم الصحة مترقرقة كالروض الضاحك في أوصالها كلها •

كانت جميع الحاضرات من الفتيات ذوات حسن • ولكن الجميع كانوا يحسون بأنها أجملهن• فتتوجه اليها الانظار والاحاديث على الدوام• باعتبارها قطب الحفل • انها الغروس او الملكة المتوجة العزيزة الجانب •

وكان بيليتسكي يبذل جهدا متصلا لاذكاء المرح والبهجة في حفلته وكان ذلك العبء واقعا على كاهله وحده • فاضطر الى القيام بمهمة الحديث والثرثرة بلا انقطاع ، وبين الحين والحين يرغم الفتيات على احتساء كأس ، ويعابثهن ثم يلتفت الى اولينين ويلقي اليه بالفرنسية تعليقات ماجنة على جمال ماريانكا ، ويدعوها «صديقتك» • ويستحثه على الاقتداء به في الهذر والهزل والمداعبة • ولكن اولينين كان يشعر بازدياد الحرج والارتباك والضيق فجعل يفكر في تعلة تبيح له الانصراف والافلات • واذا بيليتسكي يقول لاوستنكا :

— من واجبك والحفلة في دارك ان تقدمي الكأسين الى اولينين والي • وان تتوجي ذلك بقبلة من ثغرك الشهي •

وضحكت الفتاة وتثنت ثم قالت :

— تريدني ان اصنع ما نصنعه عندنا في الافراح • ليكن • ولكن بشرط ان يضع كل من أقبله نقوطا في طبقي حسب الاصول •

وما ان سمع اولينين هذا الكلام منها حتى تولاه الخوف ان تقبله ، فنهض لينصرف وهو يحدث نفسه قائلا :

ــ ما كان أغباني اذ جئت الى هذه الحفلة المغثية للنفس !

ودهش بيليتسكي ، وقد رأى صاحبه يريد الانصراف في الوقت الذي بدأ فيه السرور الحقيقي ، فصاح به :

ــ الى اين انت ذاهب يا هذا ؟

فقال اولينين يراوغه :

ــ سأحضر جانبا من التبغ من بيتي .

ولكن بيليتسكي جذبه من يده وقال بالفرنسية :

ــ لا لزوم لذهابك . معي نقود . سأرسل من يشتري لك .

فتألم اولينين لهذا الاحراج وقال لنفسه :

ــ أما من سبيل اذن الى مغادرة هذا المكان ؟ ولكن ألا استطيع حقا ان أسلك مسلك بيليتسكي ؟ وما دام هذا حالي فلماذا حضرت منـــذ البداية ؟ كان من واجبي ألا أحضر بأي شكل . ولكن ما دمت قد حضرت فليس من حقي ان أفسد على هؤلاء الناس متعتهم ومرحهم . ويجب ان اشرب الخمر معهم ، على طريقة اهل القوقاز متى لزم الامر !

ومد يده الى الكأس وكانت تتسع لملء ثماني كؤوس ، فصب فيها الجكير ثم رفعها الى فمه وشربها جرعة واحدة .

ونظرت اليه الفتيات وهو يتجرع الخمر بهذه الطريقة في عجب ممزوج بالخوف . لانهن وجدن ذلك فوق طاقة اي انسان . ثم لم يلبث ان سرى عنهن لما رأينه ثابتا في مكانه لا يترنح ، وعندئذ ضحكن وقدمت اوستنكا الى الشابين كأسين أخريين ، فشرباها ايضا . ثم قبلتهما . فوضع كل واحد منهما روبلين فضيين في طبقها . فتناولت النقود وجعلت تشخشخ بها وتقول للفتيات :

هيا يا بنات نطلق العنان للمرح والابتهاج . لا تضيقن على أنفسكن. هيا ولا ترددن !

فقال بيليتسكي يشجعهن :

ــ فلتتقدم كل واحدة منكن في دورها لتقبلنا وتأخذ النقود !

ولما رآهن يضحكن ولا يتحركن قال لماريانكا :

ــ هيا ابدئي انت يا ماريانكا . أسقينا وقبلينا ؟

فرفعت يدها كمن تهم ان تضربه وقالت :

ــ نعم سأعطيكما قبلة لا يذهب اثرها سريعا !

فقالت فتاة اخرى :

ــ من هي التي تمانع في تقبيل جدنا ؟

فهجم بيليتسكي على هذه الفتاة وقبلها فوق وجنتها التفاحية ، وهي تحاول عبثا ان تتخلص من قبضته • ثم التفت الى ماريانكا وقال :

ــ ليس الامر عسيرا كما ترين • هيا قدمي لي كأسا • وقدمي كأسا كذلك للرجل الطيب النازل ببيتك !

ثم اخذها من يدها وذهب بها الى الاريكة ، فأجلسها بجوار اولينين• ولم تقاوم ماريانكا مقاومة جدية ، بل جلست بجواره ورمقته بنظرة طويلة تفيض زهوا ودلالا من عينيها اللوزيتين • فصاح بيليتسكي بالفرنسية :

ــ يا لها من امرأة ! ما أجملها !

وفهمت ماريانكا من لهجة الكلام مغزاه التقريبي ، فنطقت نظرتها الى اولينين بالاعتزاز بحسنها الفتان •

ولم يشعر اولينين الا وهو يطوق ماريانكا بين أحضانه ويهـــــم بتقبيلها ، فتخلصت منه بحزم ، وكادت توقع بيليتسكي على الارض • وقفزت بعيدا الى ركن آخر من الحجرة • وكثر زؤاط الفتيات • وعندئذ قال بيليتسكي بصوت هامس شيئا ما للفتيات ، فتسللن جميعا الــــى الدهليز الخارجي وخرج هو معهن ، وأغلق الباب من الخارج بالمفتاح وتركهما وحدهما •

فنظر اليها اولينين طويلا ثم قال :

ــ لماذا رضيت بتقبيل بيليتسكي لك ورفضت قبلتي ؟

فعضت على شفتيها وقطبت جبينها وقالت له :

ــ هكذا مزاجي !

ثم لم تلبث ان ابتسمت وقالت :

ــ هو جدنا • قبلته شيء لا يهم •

ثم نهضت الى الباب وجعلت تضربه بقبضتها وتصيح :

ــ لماذا أغلقتم الباب ايها الشياطين ؟!

فنهض اولينين عن الاريكة واتجه اليها ووضع يده على كتفها وقال :
ـ لا بأس ! لقد تخلصنا من ضجتهن ! فلنمكث وحدنا قليلا •
فزوت الفتاة ما بين حاجبيها ودفعته في صدره دفعة قوية • وتبدى في وجهها الغاضب كل ما في مخيلة اولينين عن جمالها الجليل المهيب ، فثاب الى رشده ، وشعر بالخزي الشديد لما أقدم عليه تحت تأثير الخمر ، وجعل يطوق الباب بيديه ويصيح مناشدا بيليتسكي ان يفتحه • وعندئذ ارتفع صوت ضحك الفتيات من الخارج ، فصرخ اولينين :
ـ ناشدتك الله يا بيليتسكي ان تفتح !! رحمة بي !
فانفجرت ماريانكا في هذه المرة ضاحكة ضحكة صافية وقالت :
ـ ما كل هذا الفزع ؟ أخائف انت مني ؟
فقال ببساطة وصدق :
ـ الحقيقة اني خائف جدا • لقد تبينت انك لا تقلين هولا عن أمك!
فنظرت اليه نظرة ذات معنى وقالت ضاحكة :
ـ ينبغي ان تصرف مزيدا من وقتك مع العجوز بيروشكا • فأنه حري ان يعلمك كيف توقع الفتيات في شراك هواك !
وارتبك ، ثم سألها بغير تفكير وتدبر :
ـ واذا حضرت لزيارتك في البيت ؟
فأجابت بجد وهي تطرق رأسها :
ـ هذا موضوع آخر تماما • الزيارات في البيوت شيء لا غبار عليه ••
وفي هذه اللحظة دفع بيليتسكي الباب فانفتح • وأسرعت ماريانكا لتروغ من الباب لان بيليتسكي حاول لمسها بذراعيه ، فاحتك فخذها بساق أولينين • فسرت في جسمه رجفة قوية وقال يحدث نفسه :
ـ لقد كنت مخدوعا حين قررت لنفسي حياة جديدة تقوم على انكار الذات والتضحية بكل شيء في سبيل الغير • لقد تبين لي الآن عن يقين ان الهدف الوحيد للانسان هو ادراك سعادته الشخصية فلتذهب جميع تلك المبادىء الى الجحيم !
وما ان استقر رأيه على ذلك ، حتى اندفع بحماسته التي يمارس بها

جميع خططه ، فانقض على ماريانكا واحتضنها بكل عنف وقبل عنقها ووجنتها ٠

وذهل حينما رأى ماريانكا لا تغضب حينما غلبها على مقاومتها ، بل انفجرت ضاحكة من قلبها، وأسرعت تختفي بين زمرة الفتيات الاخريات٠

وكان هذا هو ختام الحفلة ٠ فخرج وهو يعجب من نفسية الفتيات وتناقض أحوالهن ٠

- ١١ -

وانفتحت الابواب

وسار اولينين عائدا الى المنزل وهو في حلم من أحلام اليقظة ، بعد ما اخذته أحداث الحفلة ، وملكت عليه مشاعره حتى جعلته في لحظة يقلب رأسا على عقب ، ما كان قد وطن نفسه عليه من انتهاج مبدأ معين هـو انكار النفس واسداء الخير للغير وجعل يحدث نفسه في الطريق :

ـ يكفي ان اترك نفسي على سجيتها ، فأصبح غارقا في حب هـذه الحورية القوقازية التي تسلب كل ذي عقل عقاله .

وأوى الى فراشه وهذه الافكار تتراقص في رأسه ، وكان يظن انها لا تلبث حتى تتبدد من مخيلته كما يتبدد البخار في الهـواء فيعود الى التمسك بأهداب المبدأ الـذي وطّن نفسه عليه ويحيا الحياة التـي كان يحياها ، الا انه عبثا حاول ذلك ، فقد رأى على غير وعي منه ان علاقته بماريانكا قد تطورت ، وأنه لم يعد هناك حاجز يحـول بينهما وأصبح اولينين يبدؤها بالتحية كلما التقيا .

وأراد صاحب الدار ان يحصل الايجار ، وقد نمي الى عقله ثـراء اولينين وكرمه وأريحيته ، فدعاه الى زيارته في كوخه ، ولدهشة اولينين رأى ترحيبا بالغا من الزوجة ، فتبدلت الحال غير الحال ، وصار اولينين بعد تلك الحفلة يتردد على كوخهم في معظم الليالي ويطيل المكث الى وقت متأخر من الليل .

وكانت حياته الظاهرة انه يعيش كسابق عهده ، ولكنه في قرارة نفسه ودخيلتها وجد ان كل شيء قد تغير فيه .

وراح يقضي سحابة ايامه في الغابة ، فاذا حانت الساعة الثامنة او نحوها وبدأ الغسق ينشر ظلاله ، سار وحده او بصحبة العم بيروشكا لزيارة مضيفه . وقد أصبح محبوبا من القوم حتى كانت تأخذهم الدهشة اذا غاب عنهم فيتفقدونه ، وزاد من حبهم له انه كان يدفع بسخاء ثمن ما يحتسيه من خمر . أضف الى ذلك ما اتصف به من هدوء واتزان ورزانة .

وعندما كان فانيوشا يأتي له بالشاي ، كان يجلس في ركن من الغرفة قرب الموقد ، وكانت الزوجة العجوز لا تلقى اليه بالا ، بل كانت تمضي في عملها كأنه لا يوجد في الغرفة انسان .

وكان الحديث يدور بين القوم وهم يحتسون الشاي او الجكير ، وكان في معظم الاحيان حول الشئون القوقازية عامة ، او عن الجيران او عن روسيا ، وكان اولينين هو الذي يبدأ الحديث والآخرون يسألون ، وأحيانا كان يخلد الى كتاب يقرأ فيه بينما كانتماريانكا تجلس القرفصاء، طاوية قدميها كالعنز البرية ، على المقعد الذي يجاور الموقد حينا او في ركن آخر من أركان الغرفة حينا آخر ، بيد انها كانت لا تشترك في الحديث . وكان اولينين يرقب من طرف خفي عينيها ووجهها كما كان يسمعها وهي تتحرك او تكسر بذور عباد الشمس . وكان يشعر في أعماقه انها تنصت بكيانها كله عندما يتحدث ، ويحس احساسا غريبا بوجودها وهو يقرأ لنفسه ، بل كان يخيل اليه انها تحدق النظر فيه ، وكان اذا التقت نظراته بنظراتها المشرقة لزم الصمت على غير وعي منه ، واكتفى بأن يرمقها بعينيه ، فيغلبها الخجل وتخفي وجهها ، فيتظاهر هو بأنه مستغرق في الحديث مع الزوجة ، بيد انه في الواقع كان يتنسم أنفاسها ، وكان يتتبع كل حركة من حركاتها، وكل خلجة من خلجات نفسها مؤملا ان تعاود النظر اليه .

ومن غريب أطوار الفتاة انها كانت تتودد اليه في حضرة الغير فاذا تصادف وكانا منفردين غلبها الحياء والخفر .

وفي بعض الاحيان كان يزورهم ولا تكون ماريانكا بالكوخ ، ثم لا يلبث ان يطرق سمعه فجأة وقع أقدامها ، ويلمح طرفا من قميصها الازرق وهي تدخل من الباب ، وتدلف الى وسط الكوخ ، فتبتسم له

عيناها ابتسامة متألقة رقيقة ، تكاد لا تلحظها العين ، فتشيع في نفسه مزيجا من السعادة والخوف معا .

ولم يك اولينين يضمر في نفسه شيئا من ناحيتها ، او يرغب في امر، بيد انه كان يشمله شعور غامض ، واحساس جارف بضرورة وجودها بالنسبة اليه ، وان الحياة بدونها شيء تافه .

واندمج اولينين في حياته القوقازية وأوغل فيها ، حتى لكأن ماضيه صفحة محيت سطورها من سجل حياته ، ولم يلق بالا او يهتم بالمستقبل، خاصة ما لا يتصل بالمحيط الذي يعيش فيه . وكان يضيق بالخطابات التي كانت تأتيه من أقاربه وأصدقائه ، اذ كانت تحمل اليه انهم كانوا يعدونه رجلا ضالا ، في حين انه كان يرمي بالضلالة من لا يعيش على نهجه .

واعتقد اعتقادا راسخا انه لن يندم على الخروج عن بيئته الماضية التي يحوطها الجاه والثراء ، واستقراره في هذه القرية مفضلا هذه الحياة التي تتميز بالعزوف والطرافة .

لقد أصبح الان يحس بقدر من الحرية والرجولة يزداد يوما بعد يوم، وتغيرت صورة القوقاز في مخيلته ولم يأنس فيه قط شيئا مما صورته له أحلامه ، ولا وجد شيئا من الاوصاف التي سمع بها او قرأها . وقال يحدث نفسه :

ــ ليس الفارق هو الزي القوقازي او الوهاد ، او الابطال والاوغاد انما الناس يحيون على سنن الطبيعة ، يولدون ، ويعيشون ويتزوجون يقاتلون ، ويأكلون ، ويشربون ويموتون من غير ان يحد من حريتهم قيد، الا ما تفرضه الطبيعة على الشمس والعشب والحيوان والشجر . تلك هي شريعتهم ولا شريعة اخرى يدينون لها .

واذ وصل به التفكير الى ذلك ، وتجلى امام ناظريه ما ينعمون به من سحر وجمال وحرية ، وقارن نفسه بهم ، أثار ذلك في نفسه الرثاء لحاله.

وبلغ به الامر ان فكر جديا في ان ينبذ ماضيه ، بل يمحوه وينخرط في زمرة القوقاز ، ويتزوج قوقازية ــ عدا ماريانكا فقد تخلى عنها للوكاشكا ــ ويعتز بصداقة بيروشكا ويخرج معه للقنص وصيد السمك، ويشارك القوقاز في حملاتهم ، وحلق به التفكير الى حد ان ساءل نفسه:

ــ ماذا يحول بيني وبين ما أريد ؟ ولماذا أنتظر ؟ هل أخشى شيئا أعتقد انه عين الصواب ؟ هل رغبتي ان أغدو قوقازيا بسيطا اعيش مع الطبيعة ، لا أضر احدا بل أسدي الخير للغير ، أشد حماقة من أحلام حياتي الماضية في ان اصبح وزيرا او قائدا ؟

على انه أحس في أعماقه صوتا يهيب به ان يتروى ولا يتخذ قرارا ، وكان وازعه انه لا يستطيع ان يعيش مثل بيروشكا ولوكاشكا ، لان نظرته الى السعادة تختلف عن نظرتهما .

كان تردده بسبب ما تخيله من ان السعادة في انكار الذات ، كما ان الجميل الذي أسداه الى لوكاشكا كان يبعث في نفسه الغبطة والسرور ، وانه آلى على نفسه ان يتاح له ان يبذل نفسه في سبيل الآخرين ، وظن في نفسه القدرة على ان ينهج نهج بيروشكا ، فلا يلبث ان يراجع نفسه ويتشبث بالتعلق بفكرة انكار الذات عن وعي وتدبر ، وعلى ضوء ذلك كان ينظر الى الناس كافة والى سعادة الآخرين نظرة متزنة حافلة بالعزة والفخـــار .

- ١٢ -

في النافذة

دارت الايام وحل موعد جني العنب ، وحضر لوكاشكا ممتطيا صهوة جواد ، فهو فارس ولا شك ، وقصد توا الى لقاء اولينين . وكان يبدو في هذه اللحظة اكثر حماسة منه في اي وقت آخر .

وما ان رآه اولينين حتى بادره بالتحية ثم سأله مازحا :

ـ اهلا ، هل عزمت على الزواج ؟

ولكن لوكاشكا تجاهل هذا السؤال ، ثم قال :

ـ لعله يكون من بواعث سرورك اني بادلت بجوادك في الناحية الاخرى من النهر ! وهذا هو الجواد ، ويا له من جواد ! انه من أصائل الجياد ، من فصيلة كاباردا من حظيرة لوف ذات الجياد النادرة ، وخبرتي بها كبيرة .

واختبر الاثنان الجواد الجديد فسارا به في نصف دائرة حول الفناء، وكان الجواد عريقا في الاصالة حقا ، ولونه بين الاسود والاحمر ، ذا جسم عريض طويل ، وشعر ناعم لامع ، وذيل كثيف يتماوج شعره تماوج الحرير ، أما معرفته وجمته الناعمتان البديعتان فخير دليل على انه من أصائل الجياد . وله ظهر عريض سوي .

ولم يسع اولينين الا ان يعجب بالجواد ، لانه لم ير من قبل نظيرا لجماله في بلاد القوقاز . وقال لوكاشكا وهو يربت عنق الحصان :

لو رأيت خطواته ! انه لذكائه يعدو وراء سيده !

فسأله اولينين :

ــ وكم دفعت في هذه المبادلة ؟
فأجاب لوكاشكا وهو يبتسم :
ــ لقد اخذته من صديق عزيز مثلك فلم يدقق معي ولم يساومني •
فقال اولينين :
ــ يا له من جواد بارع الحسن ، نادر بين الجياد ! كم يكفيك ثمنا له؟
فأجاب لوكاشكا مزهوا :
ــ عرضوا عليّ مائة وخمسين روبلا ، ولكنني سأقدمه لك دون مقابل ، حسبي كلمة منك ، يصبح لك ، وأنا يرضيني اي جواد من عندك يعينني على اداء خدمتي •
ــ كلا • هذا لا يمكن •
فقال لوكاشكا وقد اخذ يفك حزامه ويخرج منه خنجرا من خنجرين معلقين به •
ــ هل يتفضل صديقي بقبول هذه الهدية ؟ لقد جئتك بها من الضفة الاخرى للنهر •
ــ آه شكرا يا عزيزي •
ثم عاد لوكاشكا يقول :
ــ ستوافيك أمي بنفسها ببعض العنب •
فقال اولينين :
ــ لا داعي لكل هذا ، واذا كان بيننا حساب فقد نسويه في يوم من الايام ، ومصداقا لذلك فانني لم أعرض عليك نقودا في مقابل الخنجر •
ــ وهل كان من الممكن ان تعرض عليّ نقودا وأنا صديقك الحميم؟ ان صلتي بك تماثل صلتي بكرايخان • وما كان من الرجل الا ان اخذني الى داره وطلب مني ان اختار ما اشاء من محتوياته• فاخترت هذا السيف•
ودخلا بعد ذلك الكوخ وشربا كأسا من الجكير • ثم سأله اولينين:
ــ هل تنوي ان تقضي في القرية مدة من الزمن ؟
ــ كلا • فأنا لم آت الا لتوديعك ، لانهم ألحقوني بسرية اخرى مقرها الضفة الاخرى من نهر ترك • وسأذهب الليلة الى هناك مع زميلي نازركا•
ــ ومتى يتم زواجك ؟

ـ سأعود يوما لاتمام الخطبة ، ثم أرجع الى السرية ٠

ـ أليس في نيتك ان ترى خطيبتك قبل الرحيل ؟

ـ وما جدوى ان أراها ؟ ويا حبذا لو جئت الى مكان سريتنا في يوم من الايام ٠ فالخنازير الوحشية في تلك المنطقة كثيرة جدا ٠ وسأخرج لصيدها معك ٠

وركب لوكاشكا جواده وانطلق من غير ان يزور ماريانكا ٠ وكان تازركا ينتظره في بعض الطريق٠ فلما لقيه سأله هل سيزور عشيقته يانكا٠ ففكر لوكاشكا قليلا ، وقال له :

ـ خذ اولا جوادي اليها لتطعمه ٠ وسأذهب انا لشأن لي ٠ وان تأخرت قليلا فلا تقلق لاني سأبلغ السرية قبل طلوع النهار ٠

ـ ألم يمنحك طالب الحربية شيئا آخر ؟

ـ لقد اعطيته انا خنجرا خشية ان يطلب مني الجواد وفاء لدينه !

وتسلل لوكاشكا الى الفناء ومر تحت نافذة اولينين نفسها ٠ ثم وقف تحت نافذة كوخ حامل العلم ٠ وكان الظلام حالكا في الفناء فشاهد ماريانكا في قميصها الوردي تمشط شعرها الجميل استعدادا للنوم ٠ فهمس يناديها ٠ فتهلل وجهها وأسرعت ففتحت النافذة وأطلت منها وقد تقسمها الخوف والسرور ٠

ـ ماذا جاء بك ؟

ـ افتحي ! لن أمكث الا لحظة واحدة ٠ كاد يهلكني الشوق !

وأخذ رأسها بين يديه من خلال النافذة وقبلها ٠

ـ لن أفتح ! مستحيل ! هل ستبقى طويلا في القرية ؟

فانطلق يقبلها باصرار ثم قال :

ـ لا استطيع ان أطوقك بذراعي على خير وجه وأنت في النافذة ٠

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت الام تسأل ماريانكا من الذي معها ، فغاص منبطحا على الارض ، وقالت ماريانكا لامها :

ـ انه لوكاشكا جاء يسأل عن ابي ٠

ـ دعيه يدخل ٠

ـ لقد انصرف لانه كان متعجلا ٠

وفعلا مرق لوكاشكا من الفناء ، واتجه الى منزل يانكا • ولكن اولينين لمحه وهو يمر امام النافذة •

وبعد قليل كان الجنديان في طريقهما الى السرية ، فقال نازركا للوكاشكا :

ـ لقد قالت لي يانكا ان طالب الحربية بدأ يتردد على كوخ حامل العلم • وأن العجوز بيروشكا يزعم ان طالب الحربية اعطاه بندقية ليقوم بالوساطة بينه وبين ماريانكا فصاح لوكاشكا غاضبا :

ـ يا له من كذاب أشر ! ان الفتاة ليست لعوبا • والله ان لم يكف هذا الشيخ الخرف لأقتلنه •

وأخيرا جاء اليوم الذي تحدد للخطبة ، وقد أقيمت الحفلة في منزل حامل العلم ، وقد عاد لوكاشكا الى القرية ، ولكنه تخلف عن زيارة اولينين ، الذي لم يذهب بدوره لحضور الحفلة رغم انه دعي اليها ، فقد شمله حزن لم يعرف له مثيلا منذ حل بالقرية القوقازية وكان لوكاشكا وهو يرتدي ابهى حلة يمر بصحبة امه قبيل المساء ، وقد انتابت اولينين الهواجس لما أظهره لوكاشكا حياله من عدم مبالاة ، فلزم اولينين كوخه وشغل نفسه بتسجيل مذكراته في يوميات ، وكتب يقول :

«لقد قدحت ذهني بالتفكير في أمور كثيرة ، وانتابني الكثير من التغير والتبدل ، وقادني التفكير الى المثل المأثور الذي مؤداه : «ان طريق السعادة ان يحب الانسان ، يحب حبا خالصا يقوم على التضحية وانكار الذات ، يحب جميع المخلوقات ، يبذر الحب في كل مكان وفي كل اتجاه ، وقد رعيت بهذه الطريقة فانيوشا وبيروشكا وماريانكا» •

وما ان اتم هذه العبارة حتى دخل عليه بيروشكا ، الذي كان بادي السعادة ، وكان اولينين قد زاره منذ بضع ليال ، فرآه يسلخ في مهارة جثة خنزير بري بسكين صغيرة ، وقد لاحت على وجهه امارات البشر والسعادة ، وكلابه ــ ومنها ليام كلبه المدلل ــ قابعة بجواره ترقبه وهي تهز ذيولها ، وصغار الصبية ينظرون اليه من خلال السياج وقد كفوا عن معاكسته ، اما جاراته فقد اخذن يحيينه ، وأحضرت له احداهن قدحا من الجكير وقدمت له اخرى قشدة متخثرة وأتته ثالثة ببعض الدقيق •

وجلس بيروشكا في اليوم التالي في مخزنه وثيابه ملوثة بالدم ، وأخذ يوزع لحم الخنزير ، ويقبض الثمن نقدا او خمرا ، يكسو وجهه اشراق وكأنه يقول :

ـ لقد حالفني الحظ بهذا الخنزير البري ، وهأنذا من اجله يسعى الناس الي .

وكانت مكافأته على ذلك ان ظل يشرب اربعة ايام سويا لم يغادر فيها القرية ، حتى انه وجد ما يشربه في حفلة الخطبة ايضا .

وعندما أقبل على اولينين كان مفرطا في الشراب ، متورد الوجه ، مهوش اللحية ، ولكنه كان يرتدي صدرة حمراء جديدة موشاة بشرائط ذهبية ، وكان يحمل معه قيثارة روسية حصل عليها من الضفة الاخرى للنهر ، وكان قد وعد اولينين بهذه الزيارة وساءه ان يجده مقبلا على الكتابة على غير عادة .

واذ رآه على هذه الحال همس قائلا :

ـ اكتب ! اكتب يا صديقي !

وكأنما خيل اليه ان وحيا قد هبط على الفتى يسجله على الورق . فلا ينبغي ان يحول دون ذلك ، فجلس في رفق وهدوء على الأرض ، وكانت هذه مكانه المفضل اذا أفرط في الشراب .

ونظر اليه اولينين ، ثم امر باحضار شيء من الخمر . ولكنه استمر في الكتابة ، وقد وجد بيروشكا انه لا يستسيغ الشرب وحيدا وقد كانت به رغبة في الحديث ، فقال :

ـ حضرت حفلة الخطبة ، يا لهم من ملاعين ، عافتهم نفسي ، فجئت اليك !

فسأله اولينين وهو يواصل الكتابة :

ـ كيف حصلت على هذه البلاليكا ؟

فأجابه الشيخ بكل هدوء :

ـ من الضفة الاخرى للنهر يا صديقي ، انني بارع في العزف عليها، أجيد كافة الاغاني ، اغاني التتار او القوقاز ، او السادة او الفلاحين .

فنظر اليه اولينين مبتسما ثم واصل الكتابة .

وشجعت ابتسامته الشيخ فقال في جد :

ــ كفى كتابة يا صديقي ! كف عنها وخبرني عن خبيئة نفسك ، لقد اساء اليك بعض الناس ، دعهم وشأنهم ، احتقرهم ، ماذا ترجو من الكتابة؟

وأخذ الشيخ ينقر على الارض باصبعه مقلدا اولينين ، وقلب سحنته معبرا عن ازدرائه قائلا :

ــ ماذا ترجو من تسجيل المغالطات ؟ أجدر بك ان تلهو وتمرح فتكون رجلا !

فانفجر اولينين ضاحكا ، فضحك بيروشكا ، وفجأة انتصب واقفا وأخذ يعزف انشودة تترية .

ــ ماذا تكتب ايها الصديق العزيز ؟ انصت الى ما أغنيه ، فانك في القبر لن تسمع الحانا ، دع الهم وامرح !

وأنشد اغنية من تأليفه تصحبها رقصة ، وهزته النشوة ، فجعل يقفز على حين غرة ، وراح يرقص في أرجاء الغرفة .

وكان يقصد من ذلك ان يطرب اولينين ، ولكنه بعد ان شرب الكأس الثالثة من الجكير ، تمثلت أمام ناظريه ايامه الخوالي ، فارتجف صوته في غمرة اغنية محببة الى قلبه فكف عن الغناء ، ولكنه واصل النقر على أوتار البلاليكا ، وأخيرا قال :

ــ أواه يا صديقي !

وعندما التفت اليه اولينين وجده يبكي ، فأخذته الدهشة اذ رأى الدموع تنهمر على خده ، وقد فاضت شجونه فكف عن العزف وقال كأنه يناجي نفسه :

ــ آه ! يا ايام شبابي ، لقد وليت ولن تعودي !

ثم صرخ فجأة دون أن يكفكف دموعه :

ــ اشرب ! ما بالك لا تشرب ! كأنك قطعت ما بينك وبين الخمر !

وما ان انتهى بيروشكا من ترديد اغنية شجية ، حتى تناول ــ فجأة ــ بندقيته ، وكانت معلقة على الجدار ، وهرع الى الفناء وأطلقها ، ثم راح ينشد مرة اخرى بصوت أشد حزنا ، وأخيرا كف عن الغناء .

وتبعه اولينين وتطلع الى السماء وقد رصعتها النجوم ، ونظر في

اتجاه ومضات الطلقات ، وكانت دار حامـــــل العلم تموج بالاضواء والاصوات ، وتتزاحم الفتيات عند المدخل والنوافذ ، ويهرعن رائحات غاديات بين الدار والكوخ الصغير ، وأخذ بعض القوقاز يتدافعون ، وهم يسعلون مرددين صدى مرجع من اغنية بيروشكا .

وسأل اولينين الشيخ :

ـ لماذا لم تبق في حفلة الخطبة ؟

فغمغم الشيخ ، وكان واضحا ان امرا قد اساءه هناك :

ـ دعك منهم ! دعك منهم ! اني اكرههم ! تبا لهم ! لنعد الى الكوخ، وندعهم يمرحون ، لنخرج نحن وحدنا .

ثم دخل اولينين الكوخ وسأل بيروشكا :

ـ هل لوكاشكا سعيد ؟ ألا يأتي لزيارتي ؟

فهمس الشيخ قائلا :

ـ من ! لوكاشكا ؟ لقد وشوا بي عنده ، وقالوا انني أصل بينك وبين حبيبته ! ولكن ما قيمة ذلك ؟ اذا اردنا الفتاة فستكون لنا ! نغدق عليها المال فتكون لنا ! سأدبر الامر ، واني جد فاعل .

ـ كلا ايها الصديق ، ان المال لا يجـــدي اذا كانت لا تحبنـــي ، وأرجوك الا تتكلم هكذا !

فغلب البكاء بيروشكا وقال من خلال عبراته :

ـ انهم لا يحبوننا .. انت وأنا .. فنحن يتيمان .

وفي هذه الليلة شرب اولينين اكثر مما الف وهو يستمع الى كـــلام الشيخ ، ثم حدث نفسه قائلا :

ـ اذن فصديقي لوكاشكا يرفل بالسعادة الان .

ولكن الحزن كان يعتصره ، وقد أفرط الشيخ في الشراب حتى وقع على الارض ، فاضطر فانيوشا الى استدعاء الجنود لمعاونته في جر الشيخ الى الخارج ، وقد اخذ منه الغضب لسوء مسلك الشيخ الصياد .

- ١٣ -

قطاف الكرم

في هذه الفترة من السنة ، وبالتحديد في شهر اغسطس ، والسماء خالية من الغيوم ، وأشعة الشمس ترهق الانفاس ، والرياح الساخنة تثير عاصفة من الرمال التي تكاد تصهرها حرارة الشمس ، تنبعث من الكثبان وتحملها في الهواء فوق الأشجار والقرى ، وقد كسا الغبـــار العشب وأوراق الشجر ، وكان الماء قد انحسر عن نهر ترك منـــذ أمد بعيد ، وسرعان ما اخذ يغيض من البرك ، وكنت تسمع رشاش الماء وأصوات البنين والبنات وهم يستحمون ، وكانت الماشيـــة تهرب الى الحقول ، والوحوش تفر الى التلال القائمة وراء النهر ـ نهر ترك ـ وقد احتشدت الهوام والبعوض ، في سحب كثيفة فوق القرى ، وكللت قنن الجبـال بغلالة من الضباب ، وقد غدا الهواء خانقا .

في هذا الجو سرت اشاعة ان الابركة قد عبروا النهر الذي ضحل ماؤه في ذلك الوقت ، وأخذوا يعيشون في هذا الجانب ، وفي هذا الوقت ايضا كان القرويون يتجمعون في حقول البطيخ والكروم ، التي غطاها عشب كثيف أخضر فصارت في ظل رطيب .

وكانت عناقيد العنب تطل عليك من بين الاوراق مثقلـــة بحملها ، وسارت العربات تطرقع في تمهل ، وقد علتها أكداس من العنب الاسود ، وعلى الارض عناقيد عصرتها العجلات ، والاولاد في ملابسهم الملطخة بعصير العنب يجرون وراء أمهاتهم .

اما الفتيات ، وقد عصبن رؤوسهن بالمناديل حتى عيونهن ، فكن يسقن الثيران المشدودة الى العربات ، وكان الجنود ، عند مرورهن ، يطلبون شيئا من العنب ، فيتسلقن العربات ويملأن أيديهن ويلقين به للجنود .

وقد بدأت بعض الاسر في عصر الثمار ، وتشبع الهواء برائحة قشور العنب ، وامتلأت الاحواض الحمراء القانية بالعصير ، وقد شمر العمال سراويلهم ولطخ العصير أرجلهم ، وأخذت الخنازير تتمرغ في القشور، وتكدست سقوف الأكواخ بالعناقيد المعدة للتجفيف ، فتجمعت حولها الغربان تلتقط الحب .

وكان القوم يجمعون ثمارهم وهم في غمرة من الفرح ، وكان المحصول وفيرا كالمعتاد، فكانت تنبعث الضحكات من كل مكان، ممتزجة بالغناء والمرح وأصوات النساء ذوات الثياب الزاهية الألوان .

وقد جلست ماريانكا في وقت الظهيرة بكرمة الاسرة تظللها شجرة خوخ ، تخرج غداء الاسرة من تحت العربة ، وجلس حامل العلم امامها مفترشا غطاء جواد ، وراح يغسل يديه ، وخرج اخوها الصغير من البركة وهو يلهث منتظرا غداءه ، وأخذت الام تعد العنب والسمك والقشدة والخبز على منضدة ، وكان الجو قائظا ، وغشيت الكرمة رائحة كريهة ، وانطلقت الريح قوية تهز رؤوس الاشجار المتناثرة هزات رتيبة ، ورسم حامل العلم علامةالصليب، ثم تناول ابريقا من الجكير وشرب، ثم ناوله الى المرأة العجوز ، وكان يرتدي قميصا حله عند عنقه فكشف عن صدره الاشعث ، وكان البشر يكسو وجهه النحيل ، ولم يبد في حركة او كلمة اثر من خسته ، فقد كان يتظاهر بالبشاشة وقال وهو يمسح لحيته المبللة :

ـ هل ستنتهي من القطفة التي وراء الحظيرة الليلة ؟

فأجابت زوجته :

ـ ربما اذا لم يعقنا الجو .

ثم اردفت قائلة :

ـ ان آل دمكين لم ينتهوا بعد من جني نصف المحصول ، اما

اوستنكا المسكينة فتعمل بمفردها وتنهك قواها •

فقال الشيخ مزهوا :

ــ وماذا تنتظرين منهم ؟

ثم قالت المرأة العجوز وهي تناول الابريق للفتاة :

ــ هاك ، وخذي جرعة يا حبيبتي ماريانكا •

ثم اردفت :

ــ سنحصل من ثمن هذا المحصول ، ان شاء الله ، على ما يكفي نفقات حفلة الزفاف •

وعندئذ قال الصول بصوته الاجش :

ــ ليس قريبا يوم الزفاف •

واذ سمعت ماريانكا ذلك طأطأت رأسها ، وقالت الزوجة :

ــ ولماذا ؟ لقد تم الاتفاق ولم يعد لدينا متسع من الوقت •

ولكن حامل العلم اعترض قائلا :

ــ علام العجلة ؟ كل شيء مرهون بوقته ، ما يهمنا الان هو جني المحصول !

وازاء ما رأته الزوجة من غبائه ، أدارت دفة الحديث قائلة له :

ــ يا له من جواد ليس له مثيل ، لقد بادله بالجواد الذي أهداه اليه ديمتري اندريفيتش !

ــ انني لم أره ، لقد تحدثت مع فانيوشا ، وعلمت منه ان سيده تلقى الف روبل اخيرا •

ففغرت العجوز فاها دهشة ، وقالت :

ــ ما اعظم ثراءه ! انه في نعيم مقيم •

وكان جو الاسرة ينم عن السعادة ، وبعد ان وضعت ماريانكا بعض العشب للثيران ، ارادت ان تلتمس بعض الراحة فطوت صدارها واتخذت منه حشية ثم استلقت تحت العربة على العشب ، وقد عصبت رأسها بمنديل ، ولفها قميص زادها فتنة ، وغمرتها موجة من الضيق نم عنها اتقاد وجهها ، وانفراج شفتيها على غير ارادة منها ، وقد اخذ صدرها يعلو ويهبط في تنفس عميق •

ولا عجب فقد كان هذا موسم العمل والجهد المتواصل ، فكانت تنهض مع الفجر لتقوم بالاعمال المضنية ، من العناية بالماشية وتسريح الثيران والذهاب بها الى الكروم ، حيث تقضي سحابة اليوم في قطفها ، وخلال كل ذلك كانت لا تنال من الراحة الا ساعة او بعض ساعة ، وعندما يحل المساء تعود الى القرية مشرقة وكأنها لا تحس نصبا ، فتتناول بعضا من بذور عباد الشمس وتذهب لتلهو مع بعض الفتيات .

فاذا بدأ الغسق عادت وتناولت عشاءها مع الاسرة ، ثم ذهبت الى رف الموقد حيث تنصت الى حديث الساكن يغمرها شعور بالغبطة الى ان يغلبها النعاس فتنام نوما حالما .

وهكذا كانت تمر بها الايام ، ولم تكن الفتاة قد رأت لوكاشكا منذ يوم الخطبة ، وكانت تنتظر يوم الزفاف في هدوء وتعقل ، ولكنها شعرت بالطمأنينة نحو اولينين ، وكان يغمرها شعور هانيء كلما لمحت نظراته الوالهة .

***

همت ماريانكا ان تنام ، رغم حرارة الجو ، ورغم الهوام المنتشرة ، ورغم تقلب اخيها الذي لا يفتأ يدفعها وهو الى جوارها . وفجأة أقبلت اوستنكا وهي تلهث من الجري ودلفت بسرعة تحت العربة وأخذت مكانها مستلقية بجوار ماريانكا .

وما ان استقر بها المقام تحت العربة حتى قالت :

ــ ليس أمامكن سوى النوم ايتها الفتيات ! تخلدن اليه ! مهلا ، فليس يكفي ما تعلمتن .

وبغتة اخذتها الحمية فانتصبت قامتها ، وتناولت بعض اغصان الشجر ، وثبتتها في عجلات العربة ، كما علقت صدارها عليها ، ثم اهابت بالفتى الصغير ان يترك المكان قائلة له :

هل يليق بك ان تبقى مع الفتيات ؟

فلم يسع الفتى الا ان غادر المكان ، فخلا الجو لاوستنكا وصديقتها فطوقت اوستنكا ماريانكا بذراعيها وراحت تغمر خديها وعنقها بالقبلات، وأخذت تردد بين الضحكات :

ـ حبيبي •• حبيبي !
فقالت ماريانكا وهي مأخوذة تحاول تخليص نفسها منها :
ـ أهذا ما تعلمته من جدي •• حسن ؟
ثم قهقهتا في ضحك عال بعث الضيق في أم ماريانكا فصاحت :
ـ اسكتا •
فعلقت اوستنكا على ذلك قائلة :
ـ أهي الغيرة ما تدفعك الى هذا ؟
فأردفت الام :
ـ هذر ، نريد ان ننام ! ما ذلك الامر الجلل الذي دفعك الى المجيء؟
ـ ستعلمين السبب ، فصبرا •
فسألتها ماريانكا وهي تنهض مستندة على مرفقها وتصلح من شأن منديلها :
ـ اذن ما الخبر ؟
ـ امر هام يتعلق بالساكن عندكم •
فقالت ماريانكا بعدم مبالاة :
ـ لا اظن ان هناك ما يستحق المعرفة •
فما كان من اوستنكا الا ان لكزتها بمرفقها وقالت وهي تضحك :
ـ كم انت ماكرة ! أيزوركم ؟
فتورد وجه ماريانكا لهذا السؤال وأجابت :
ـ نعم يزورنا ، وماذا في ذلك ؟
ـ انني فتاة ساذجة بطبعي ، لا استطيع كتمان امر ! ولماذا ؟!
وظهر عليها التفكير وتورد وجهها المشرق ثم اردفت :
ـ انني أهيم به حبا !
ـ أتعنين جدي ؟
ـ اجل !
ـ ولكنها خطيئة !
ـ آه يا ماريانكا ! متى ننعم بالمتعة ان لم يكن الان ونحن خاليات ، فحين تتزوج سننجب الاطفال وتستغرقنا الهموم والاعمال • وهل تظنين

انك ستنالين متعة بعد ان يتم زواجك ؟

ــ الزواج في حد ذاته متعة وسعادة •

ــ حدثيني بما حدث بينك وبين لوكاشكا ؟

ــ ماذا حدث بيننا ؟! تقدم لخطبتي • وأراد ابــي ارجاء الزفاف ، ولكننا سنتزوج في الخريف •

ــ ماذا قال لك ؟

ــ ماذا تظنين ان يقول ؟ قال انه يحبني ، بل يهيم بي وألح عليّ ان اذهب معه الى الكروم !

ــ طلبه هذا يدل على الصفاقة ، طبعا لم تجيبيه الى طلبه ، انه جريء، فخر القرية ، يشيع المرح حوله حيثما كان • لقد عاد كبركا امس وقال فيما قالهانه معجب بجواد لوكاشكا•• انني أعتقد يا عزيزتي انك اصبحت شاغل فكره وعقله ••• ماذا قال لك ايضا ؟

ثمل وترجاني السماح له بالدخول •

ــ وهل سمحت له ؟

ــ هل تتصورين ذلك ؟! بل هل يدور بخلدك ان أسمح له ؟

ــ ولكنه شاب خفيف الروح ، وما من فتاة ترفضه اذا رغب فيها !

ــ ليذهب الى الشيطان ! ليذهب الى الفتيات اذا شاء !

ــ الا تأخذك به شفقة ؟

ــ وهل معنى الشفقة ان أسمح له بالعبث • انه خطيئة !

وارتمت اوستنكا على صدر صديقتها في حركــة تمثيلية وضحكت وقالت ، وهي تدغدغها :

ــ ألا تحبين السعادة ايتها الساذجة ؟!

ولكن ماريانكا قالت ، وقد أشرق وجهها بالضحك :

ــ ماذا دهاك ؟ دعيني !

وانطلق صوت العجوز تنهرهما عن ذلك العبث •

وعادت اوستنكا تقول :

ــ ترفضين السعادة ! ولكن الحظ يحالفك ، الجميع يحبونك رغــم مناعتك ، لو انني في مكانك لادرت رأس نزيلكم ، فقد لاحظت وأنتم

في داري انه يلتهمك بعينيه ، ما اعظم ثراءه وهداياه ، يقولون انه اغنى الروس وان لديه عبيدا لا حصر لهم •

وفكرت ماريانكا لحظة ثم قالت مبتسمة وهي تجز بأسنانها :

ـ لو تعلمين •• لقد قال لي مرة : تمنيت لو انني كنت قوقازيا مثل لوكاشكا ، فما الذي كان يعنيه بذلك يا ترى ؟

ـ لقد القى اليك بأول هاتف من قلبه •

وكأنما سبحت ماريانكا في شبه غيبوبة ، فمالت برأسها على صدارها المطوي وأحاطت كتف اوستنكا بذراعها ، ثم أغمضت عينيها ، ولاذت بالصمت برهة ، ثم قالت في نبرة حالمة :

كان يرغب في المجيء الى الكرمة اليوم •• حيث دعاه ابي ••

ثم اسلمت عينيها للنوم •

- ١٤ -

نجوى

من وراء شجرة الكمثرى التي كانت تحتها العربـــة طلعت الشمس وأخـذت تصب حرارتها على وجهـــي الفتاتين النائمتين . فاستيقظت ماريانكا ، وأخذت تسوي منديلها . وحانت منها التفاتة ، فرأت اولينين يتحدث مع ابيها ، وبندقيته على كتفه . فنبهت اوستنكا اليه وهي تبتسم. وكان اولينين يتلفت حواليه، وهو يكلم أباها، وقد أقلقه الا يرى ماريانكا، لأن الغصون كانت تحجبها . ثم قال :

ــ ذهبت امس فلم اجد شيئا .

فقال حامل العلم وقد غير لهجته في الحديث :

ــ اذهب ناحيةهذه الكرمة المهجورة، فهناك الكثير من الارانب البرية.

وكأنما بعث هذا الحديث الضيق في الزوجة فقالت في شبه تهكم :

ــ الأجدر بك ان تعاوننا فيما نعمل ، فذلك خير من صيد الارانب . ألا يجمل بك ان تشارك الفتيات العمل الذي يضنيهن .

ثم اردفت ذلك بأن صاحت بالفتاتين ان تنهضا . وكانتا تتهامسان تحت العربة ولا تكفان عن الضحك .

وزادت أواصر الالفة بين اولينين ومضيفيه بعد ان عرفا بنبأ الجواد الذي أهداه الى لوكاشكا . وكان يسر حامل العلم اكثر من ذلك مـــا يلاحظه من نمو أواصر الالفة بين ماريانكا وأولينين . وقال اولينين ردا على كلام المرأة العجوز :

ــ ولكنني لا اعرف ماذا أعمل بالضبط .

ولمح ماريانكا بقميصها ومنديلها فتحاشى النظر ناحيتها من خلال الاغصان . فقالت له الزوجة :

ــ اتبعني ، سأعطيك بعضا من ثمر الخوخ .

وعندئذ اراد حامل العلم ان يفسر قول زوجته فقال :

ــ انه الكرم القوقازي القديم كما يصوره لها خيالها المظلم في هذه السن ، ولعلك الفت في روسيا الاناناس اكثر من الخوخ .

ــ اني ماض الى الكرمة المهجورة حيث الارانب البرية .

ورفع قبعته واختفى بين الكروم .

وعاد اولينين وقد مالت الشمس نحو الغروب الى كرمة مضيفيه ، وقد سكنت الرياح وتهادت بعدها نسمات عذبة ، ولمح اولينين ماريانكا فراح يقترب منها يسبقه كلبه ، ورآها تقطع العناقيد ، فتورد وجهها ، وقد شمرت عن ساعديها وتدلى منديلها ، فما ان ابصرته حتى ابتسمت محيية في بشاشة دون ان تتوقف عن العمل .

وعندما اصبح اولينين في مواجهتها ، وضع بندقيته على ظهره وأراد ان يتكلم ويقول :

ــ هل تعملين وحدك ؟ ألا توجد فتيات يساعدنك ؟ الله معك !.

ولكنه لم ينطق ، ورفع قبعته وهو صامت لانه كان يحس شعورا مقبضا كلما انفرد بماريانكا ، فقالت له ماريانكا :

ــ أخشى ان تصيب النساء طلقات بندقيتك وهي في وضعها هذا !!..

ــ لا تخافي . فلن ينالهن اذى من بندقيتي .

ثم خيم السكون بينهما لحظة ، فقطعته ماريانكا قائلة :

ــ ألا تساعدني ؟.

فأخرج مديته وأعملها في قطف عناقيد العنب في صمت ، وعندما ناولها عنقودا كبير الحجم تلامست منهما اليدان ، فأمسك اولينين يدها ونظرت اليه مبتسمة فسألها :

ــ هل سيتم الزواج قريبا ؟

ولكنها تجاهلت سؤاله وزال اثر الابتسامة من عينيها ، وأشاحت عنه، فعاد يسألها :

ـ هل يعمر قلبك بحب لوكاشكا ؟
ـ وماذا يهمك من ذلك ؟.
ـ اني اغبطه !
ـ هذا جائز من جانبك .
ـ انني اقول الحقيقة ، ان جمالك رائع لا يمكن الصمود امامه !
وخيل اليه ان كلامه تافه ، فاحمر وجهه خجلا ، وفقد اتزانه ، وأمسك بيديها بين راحتيه . وعندئذ قالت له ماريانكا :
ـ على اية حال انت تعلم اني لست لك ، فلماذا تحدثني هكـــذا وتسخر مني ؟
ولكنها في عرارة نفسها كانت تعلم تماما انه جاد في حديثه لا ساخر.
ـ كيف تقولين هذا ؟ أه لو عرفت مبلغ .. ماذا اقول .. ليس في الوجود امر لا اقدم عليه في سبيل رضاك !
ـ اتركني وشأني . ايها اللحوح !.
قالت ذلك بلسانها فقط ، لان وجهها الصبوح وعينيها المتألقتين ، وصدرها الناهد ، كانت جميعها تنم عن عكس ما تقول . وجال بخاطره انها تعلم تماما عاطفته نحوها وان كان عاجزا عن الافصاح ولكنها ـ شأن كل فتاة ـ يملؤها زهوا ان يغمرها بحديث الهوى والهيام .
وأخذ يفكر فيما بينه وبين نفسه «كيف لا تعلم وأنا اريد ان احدثها بكل ما فيها من صفات الروعة والجمال ، ولكنها لا تريد ان تجيب» .
وبغتة دوى صوت اوستنكا حادا من وراء الكروم وهي تهتف :
ـ نحن هنا !
ثم ضحكت عاليا وهي تخفي وجهها بين الكروم قائلة :
ـ الي يا اولينين ، تعال وساعدني فانني هنا وحدي .
ولكن اولينين لم يحر جوابا ولم يتحرك من مكانه .
وواصلت ماريانكا قطف العناقيد وخرج هو من الكرمة يسرع الخطى.

***

اخذ اولينين ينصت الى ما يصل الى سمعه من ضحكات ماريانكـــا

وأوستنكا ، التي تصل اليه من بعيد بين حين وحين ، وهو في طريقه الى الغابة • ثم قضى الامسية في الصيد • بيد انه عاد من غير ان يظفر بشيء• وجلس عند باب مسكنه في موضعه المعهود من المدخل •

ولاحظ ان اصحاب الدار عادوا من الكرمة ودخلوا كوخهم • ولكنهم لم يدعوه للدخول • وخرجت ماريانكا الى الفناء والحظائر مرتين •

وخيل اليه انها كانت تنظر اليه • فجعل يلتهمها بعينيه وهي تغدو وتروح • ولكن الشجاعة لم تواته على الدنو منها • وأخيرا دخلت كوخها ولم تظهر • فسخط على نفسه ، وغادر موضعه ، ونزل الى الفناء ، وجعل يروح فيه ويجيء وقد أرهف اذنيه لكل صوت يمكن ان يصدر عن الكوخ الآخر •

وهكذا سمع اصوات تناول العشاء ، واخراج الفراش والحوار المتبادل • وسمع رنين ضحكات ماريانكا مرة او مرتين• ثم أطبق السكون على الكوخ كله •

وعاد اولينين الى كوخه فوجد خادمه فانيوشا يغط في نومه بملابسه الكاملة ، فغبطه على تلك السعادة التي لا يعرفها الا ذوو البال الخلي • ولم يطق البقاء في الكوخ فخرج بعد قليل الى الفناء لانه كان يتوجس بل يترقب حضور شخص تحت جنح الظلام • بيد ان الوقت انقضى من غير ان يظهر احد •

وفي صمت الليل كان يميز بسهولة تنفس الاشخاص الثلاثة داخل كوخهم • وكان يعرف تنفس ماريانكا فيتجاوب معه قلبه بالنبض السريع• ولم يلبث القمر ان ظهر متأخرا • فازداد قلق اولينين وسخطه وسأل نفسه:

ــ ترى ماذا أريد بالضبط ؟

وعندئذ سمع ضجة خافتة كوقع الاقدام الحافية • فأرهف اذنيه ثم اكتشف ان الجاموسة كانت تتقلب في الحظيرة ثم وقفت على قوائمها برهة وجيزة وبعدئذ عادت للرقاد • فجعل اولينين يتساءل ماذا ينبغي ان يفعل الان؟ ان النوم يجفوه• ويفتنه جمال الليل في هذه الامسية القمراء• وبعد قليل تبين خطوات ماريانكا داخل الكوخ • فأسرع الى نافذتها وأخذ ينقر على مصراعها نقرا خفيفا وجرى نحو الباب• ونقر عليه وانتظر•

وسمع صوت قدميها الحافيتين تتجهان الى الباب • وبعد ذلك تحـرك المزلاج وأحدث صوتا • ثم ظهرت ماريانكا في فرجة الباب كأنها رؤيا حلم في ضوء القمر • فانكمش حتى لا تراه • وأسرعت تغلق الباب • فعاد الى النقر ، ولكنها في هذه المرة لم تستجب له • فرجع الى نافذتها وأخذ ينقر مرة اخرى • ثم سكت وأنصت • فروعه صوت رجل ينبعث عاليا غاضبا، فالتفت ليرى شابا قوقازيا ربع القامة يخترق الفناء ويقول :

ـ لقد رأيت كل شيء والله العظيم هذا شيء مدهش !

وعرف اولينين في هذا الشخص الجندي. نازركا • فارتبك ولم يدر ماذا يقول او يفعل ، واستطرد ذلك الشاب الخبيث يقول :

ـ سأخبر القيادة بما رأيت ! وسأخبر أباها ايضا ليعرف حقيقـة ابنته ذات الشرف المصون والذيل الطاهر ! أليس يكفيها رجل واحد ؟

وأخيرا وجد اولينين لسانه فسأله بحدة :

ـ ماذا تقصد بهذه الضجة ؟

ـ لا شيء ! أقصد فقط ان ابلغ ما رأيت الى من يهمهم الامر ! انك حقا فتى خطير يا طالب الحربية !

وكان نازركا يتحدث بصوت مرتفع جدا شأن من يريد احداث فضيحة•

ـ اسمع • هيا معي الى كوخي لنتفاهم • ليس بيني وبينها شـيء والفتاة طاهرة شريفة لم تسمح لي بالدخول عندها • ولم أقصد بها سوءا !

ـ حقا ؟ أتظنني صدقت ؟ اتظن انك ستجد من يصدقك ؟

ـ ولهذا السبب اعطيتك هذه لتسكت !

ونفحه بعشرة روبلات • فضحك نازركا وقال :

ـ افعل ما تشاء • هي حلال لك !

وكان نازركا قد جاء القرية تلك الليلة تنفيذا لطلب لوكاشكا كـي يبحث عن مكان يخفي فيه جوادا مسروقا • وفي طريقه سمع وقع أقدام في فناء الكوخ • وكان ما كان بينه وبين اولينين • ولكنه حرص على ابلاغ لوكاشكا في الصباح بكل ما حدث ، وأراه العشرة روبلات •

وفي اليوم التالي عندما قابل اولينين اصحاب الدار نظرت اليـه ماريانكا وضحكت قليلا • فقضى ذلك اليوم مضطربا ، ولم يجد سبيلا

الى النوم كذلك • فتعمد ان يقضي اليوم الذي يليه في الصيد ، ثم ذهب لزيارة بيليتسكي هروبا من التفكير ، وآلى على نفسه ألا يذهب الى كوخ حامل العلم مرة اخرى •

وفي الليل استطاع ان ينام • ولكن العريف حضر وأيقظه لان الامر صدر الى الكتيبة بالخروج فورا في غزوة • فتمنى اولينين ان يلقى حتفه في تلك الغزوة حتى لا يعود الى القرية •

واستمرت الغزوة اربعة ايام • وكان القائد من اقرباء اولينين فعرض عليه ان يبقيه في مكتبه ياورا له ويقيم في مقر القيادة • ولكن اولينين رفض ذلك العرض • لان هذه الايام الاربعة اثبتت له انه لا يستطيع البقاء بعيدا عن القرية • ورجا القائد ان يسمح له بالعودة فورا • فأجابه الى طلبه ومنحه وسام الصليب •

وكان من قبل يحلم بذلك الوسام ويتمناه • ولكنه حين ظفر به تبين انه لا يكترث به • بل وتبين ايضا انه لا يكترث بما سيتحقق بعد قليل من ترقيته الى رتبة الضابط •

وامتطى اولينين صهوة جواده وعاد وفي صحبته فانيوشا سليما معافى، متقدما على سائر جنود الكتيبة بضع ساعات ، وقضى الامسية كلها جالسا في مدخل كوخه يرقب ماريانكا • ثم جعل يذرع الفناء طول الليل على غير هدى ، وبغير هدف ، وقد خلت رأسه من كل فكرة •

- ١٥ -

خطاب الى مجهول

غادر اولينين فراشه في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي ، وكان حامل العلم قد خرج ، فلم يتوجه اولينين للصيد كما كان قد عقد العزم اذ كان في حالة من الاضطراب بادية لا يستقر في موضع ولا يستقيم له مسلك ، حتى خيل الوهم لفانيوشا ان طائفا من المرض عرض له .

وعندما حان المساء شرع اولينين يكتب . وظل مثابرا على الكتابة الى ساعة متأخرة من الليل . ولكن الخطاب الذي كتبه لم يعرف طريقه الى البريد ، لانه ادرك ان كتابته لا يمكن ان تفهم على وجهها الذي عناه . وفي واقع الامر لم يكن يهمه كثيرا ان يفهم احد سواه ما اراد التعبير عنه .

وهاهو ذا ما سطره في تلك الليلة :

«ترد على الخطابات من روسيا حافلة بالرثاء لحالي . كأن القوم يخشون ان تطمرني الارض ، فأدفن حيا في هذا الركن الموحش من الدنيا . ويجمع الكل على انني صائر لا محالة الى الفظاظة والخشونة وحياة البداوة المتخلفة عن روح العصر ، وبعضهم يتوقع ان انزلق الى ادمان الشراب ، ولا يستبعدون ان اقترن بحسناء من بنات القوقاز . ودليلهم على هذا ما أكده قائد من اكبر قوادنا .

«كل روسي يخدم في القوقاز عشر سنوات لا بد ان يخرج من هناك بآفة ملازمة : فاما ان يدمن الخمر حتى تأتي عليه . واما ان يتزوج قوقازية منحلة ! وهو كلام خطير جدير ان يفزع ذا رشد ! ولست اريد لنفسي الشقاء والخسارة ، وأنا أملك ان اعيش في سعادة وبحبوحة ، فأتزوج

الكونتس ب •• او أعين ياورا في القصر او مقدما للنبلاء في ناحيتي !

«هذا قولهم وهو يدل على جهل تام بالكنه الحقيقي للحياة والسعادة! وما أجدرهم ان يغيروا هذا الرأي متى ذاقوا ولو مرة واحدة في العمر ، جمال الحياة الطبيعية في سواء فطرتها الاولى !

«أجل لا يمكن ان يعتبر انسانا حقا من لم تهتز نفسه بهذا الذي اراه في كل يوم من جبال يتوجها الجليد ، او امرأة يتوجها الجلال الطبيعي والجمال الفطري ، فهكذا خلق الله ولا شك المرأة الاولى التي أفسدنا صورتها بما نزعمه من مدنية زيفاء !

«لو رأوا هذا الذي رأيت ، وجاشت نفوسهم ببعض ما أحسست لعلموا يومئذ اينا أصدق قيلا ، وأهدى سبيلا ، وأحظى بما نال ! أينا يعيش حقا وصدقا ، وأينا حياته بهتان وتمويه !

«كم أحتقر نفسي لو انني استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير • لو انني استبدلت الابهاء الرحيبة الباردة ، والدمى المزركشة ذات الشعر المضمخ ، والطرر المستعارة والوجوه المصبوغة بكوخي الصغير وغابتي وحبي !

«ان حياة المجتمع تبدو في نظري آسنة ، بما فيها من ثرثرة ومراسم ومظاهر ومجاملات ورياء • وليت الذين يلومونني يهتدون الى لباب الحقيقة ليعلموا ان الطبيعة هي مصدر الحق والجمال الذي لا مصدر سواه • عندئذ تتبدل أنظارهم وتنهار قصور آمالهم وأهدافهم في الحياة•

«ان السعادة الحقيقية في ان يعيش الانسان مندمجا مع الطبيعة بجميع حواسه • هذا هو رأيي وهذا هو ما اصنعه الآن فعلا • ولكني أخالهم يرثون لحالي ويقولون «مسكين ! ان هذا النمط من الحياة قد يسوقه (لا قدر الله) الى الزواج من فتاة قوقازية من تلك الطبقة العامة، فتهدم مستقبله الاجتماعي وتقضي على مكانته !» •

«وليس لي امنية سوى ان يقضي على مكانتي بهذا المعنى • نعم ليس أحب الي من الزواج من فتاة قوقازية من بنات السوقة • وليس يمنعني من ذلك ألا تهيبي من الاقدام على حالة من السعادة لا اقوى على احتمالها •

«ثلاثة اشهر انقضت منذ رأيت القوقازية الحسناء ماريانكا • وكنت حديث عهد بفتنة العالم الزائف الذي تركته • فلم يكن ليخطر ببالي اني قد أحب هذه الفتاة • وكان قصاراي ان أسر بحسنها الفائق ، سروري بجمال الجبال وجمال السماء • وشيئا فشيئا تبين لي ان اجتلاء جمالها ضرورة من ضرورات حياتي •

«وبدأت أسأل نفسي : هل احبها حقا ؟ وفتشت في أعماق نفسي ، فلم اجد شيئا يشبه عاطفة الحب كما كنت أتخيلها • فلم يكن حبا شهوانيا كالذي خبرته من قبل ، ولا وحشة ناجمة من العزلة والوحدة • وانما هو الشعور بالحاجة الى رؤيتها ، وسماع صوتها والاحساس بقربها مني ، فلما ضمني واياها مجلس ذات ليلة ، وأتيح لي ان ألمسها ، شعرت ان الذي بينها وبيني عروة وثقى لا انفصام لها ، ولا حيلة لي فيه ولا قبل لي بدفعه • ومع ذلك عزمت على المقاومة وقلت لنفسي :

«أيكفي ان تكون امرأة جميلة كي اتزوجها ؟ أأعشق تمثالا ؟ ليس بين حياتينا شيء مشترك حتى أحبها وهي لا تدري عن عالمي شيئا» •

«ومع ذلك أحببتها • وتغيرت العلاقة بيننا بعد تلك الجلسة الاولى• فلم تعد صنما مهيبا معبودا بيني وبينه عازل ، بل صارت انسانا سويا من لحم ودم • فأصبح كل همي ان اتحدث اليها وألقاها • وفي سبيل ذلك عملت بيدي في حقل ابيها • وقضيت أمسيات برمتها بين اسرتها • وأمست صورتها في هذا الاطار العائلي الجديد ، مصونة على الدوام ، محفوفة بهالة من التقديس والجلال ، على ما في شخصهـــا من بشاشة وأنس ومرح ومودة •

«وكنت في تلك المناسبات أحاول ان ابدو منبسطا في غير اكتراث او غرض وأنا أمازحها ، ولكن قلبي كان يتنزى وتمزقه الأشواق ، فتحس بفطرتها السليمة اني أتكلف وأعاني •

«وانتهزت فرصة في الكرمة وصارحتها بهواي والخجل يشملني ، فما كان ينبغي ان أكاشفها بتلك الكلمات ، لانها في نظري أجل من كل علاقة ، وعاطفتي نحوها اسمى من كل تعبير • وحز في نفسي انني اسففت فلم ارتفع الى المستوى الذي يليق بها ، ولم ابلغ معها مستوى العلاقات

المستقيمة الصريحة الفطرية البسيطة .

«وبلغ مني الاضطراب مداه فانعكس ذلك على أحلامي . فكنت أراها في المنام خليلتي تارة وحليلتي تارة اخرى . فكنت اصحو وبي غثيان شديد من مجرد هذه الصورة . لانه من الفحش ان أتخيلها امرأة عاهرة . ومن السفه ان أتخيلها زوجة لنبيل روسي ، لا لان ذلك فوق قدرها ، بل لانه يمسخها مسخا ويحيل طبيعتها النقية السليمة .

«وحاولت ان أهرب من هذا المأزق ، مأزق القلق والحيرة . فانغمست في حياة من العربدة والسكر على طريقة سكان الاقليم . ولكن هذا الدواء زاد من غثياني وتقززي من نفسي . وبدت مشكلتي اشد تعقدا في نظري وأدعى لليأس .

«ان شر ما في الامر احساسي بأني أفهمها وانها لن تفهمني . لا لانها أقل مني ، بل لانها افضل مني . بحيث يكون من الطبيعي ألا تفهمني فهي كائن متكامل كالطبيعة نفسها تجري على سجيتها بغير نقص وبغير حاجة الى احد . اما انا فمخلوق ناقص ضعيف ، بي حاجة الى ان تدرك نقصي وتفهم عذابي .

«وفي الثامن عشر من هذا الشهر خرجت كتيبتي في حملة ، فأمضيت ثلاثة ايام بعيدا عن القرية ، كنت فيها مبتئسا حزينا ، سأمان ، لا يسري عني العزف واللهو ، ولا يحلو لي السمر ولعب الورق . كنت كمن فقد نفسه !

«وأمس عدت الى القرية . ورأيتها . واذا بي من جديد في كوخي ومع العم بيروشكا، ارى من نافذتي قمم الجبال تكللها الثلوج، وأحسست اني اعيش مرة اخرى .

«وبهذا تأكد عندي اني احب لاول مرة في حياتي حبا صادقا . واني لفخور بهذا الحب . وان لم يكن لي فيه فضل لانه شعور غلبني على امري . ولكم حاولت التخلص منه بضروب من التصوف وانكار الذات. بل حاولت ان اخدع نفسي ، برعاية ذلك الحب الطبيعي الساذج بين لوكاشكا وماريانكا . فلم أجن من ذلك الا اشواك الغيرة .

«ان حبي لها لغريب : ولعلني احب الطبيعة فيها . او احب كل جميل

في الطبيعة ممثلا فيها • ولكني لا أفعل ذلك بارادتي او عن رضى مني، بل مغلوبا على امري • فقوة اكبر مني هي التي فرضت عليّ هذا الحب وسخرتني له ، فأنا فيه اداة لا ارادة لها •

«اما التضحية بالنفس وفعل الخير للناس فشيء جميل • ولكن نفسي الان مشغولة بشيء واحد هو حب ماريانكا • فليس فيها متسع لاي مبدأ آخر • ولذا لم اعد أنشد السعادة للوكاشكا او غيره من الناس • اني اغار من كل انسان • وأتعذب • ولكن هذا العذاب ، وعن طريق هذا العذاب أشعر بحياتي •

«لقد كنت ميتا من قبل • اما الان فأنا احيا بمعنى الكلمة • ولاذهبن اليوم الى دارها ولافضين لها بكل شيء» •

***

وتوجه اولينين الى كوخ حامل العلم في ساعة متأخرة من ذلك المساء، فوجد اولنكا جالسة على اريكة عند المدفأة تقوم ببعض الاعمال المنزلية• اما ماريانكا فكانت تحيك شيئا من الثياب على ضوء شمعة وهي مكشوفة الشعر • فما ان ابصرت اولينين داخلا حتى اسرعت الى منديلها وقفزت فوق رف المدفأة فكان لا يرى الا ركبتها • فلما رأى اولينين ذلك ، استوحش واضطرب ، لانه كان يشعر بعينيها الجميلتين ترقبانه من حيث لايراها • واشتجر الحديث العادي بين الضيف والاب والام •

وأظهرت اولنكا الكثير من الكرم والعطف عليه ، وألحت عليه مرارا انيأكل من الزبيب والشهد• وبعد قليل تطرق الحديث الى موضوع خطير•

ـ ان محصول العنب هذا العام جد وفير • عصرنا منه كفايتنا من الجكير وصنعنا كفايتنا من المربى • وما بقي سنبيعه بثمن طيب ، ونقيم حفلة زفاف رائعة !

فأحس اولينين ان الدم يصعد الى رأسه • وتسارعت دقات قلبهوسأل:

ـ ومتى سيكون الزفاف ؟

وكأنما ارادت ماريانكا ان تجيبه بطريقتها فسمع من فوق المدفأة طقطقة لب عباد الشمس • اما العجوز فقالت بكل هدوء :

ـ المفروض ان يكون ذلك في الاسبوع القادم . فنحـن على أهبة الاستعداد . وقد عزمنا بعون الله على ان يكون تجهيز ماريانكا بالغا حد الكمال . وليس هناك ما يقلقنا سوى ما طرأ على سلوك عزيزنا لوكاشكا في الفترة الاخيرة من اعوجاج . فقد نقل الينا احد زملائه في الكتيبة انه يتردد على منازل عشيرة النوغاي .

فقال اولينين :

ـ هذه مجازفة غير مأمونة العواقب .

ـ أليس كذلك ؟ لذا قلت لعزيزنا لوكاشكا «لا تتورط في اعمال الرعونة طلبا للشهرة . وتمهل ، فان الشهرة والبطولة ستأتي في مناسباتها مع الاناة وطول العمر . وأنت الان مقدم على الزواج والاستقرار فينبغي ان تكون حريصا على نفسك» .

ـ اني فعلا سمعت انه سرق من هناك جوادا في المدة الاخيرة وباعه بثمن طيب .

فنظرت اليه من فوق المدفأة عينان جميلتـان تفيضان عداء وقالت صاحبتهما :

ـ انه فتى شجاع ولا تثريب عليه ! ما دام لا يؤذي احدا بل يروح عن نفسه .

وقفزت من فوق رف المدفأة وخرجت وصفقت الباب ، فلبث اولينين كالمصعوق لا يدري شيئا مما تحدثه به اولنكا ، الى ان وفد على الدار ضيوف ، هم اخ مسن للسيدة اولنكا ، والعم بيروشكا ، وأوستنكا . ومعها ماريانكا .

وبدأت اوستنكا بسؤاله :

ـ أما زلت في اجازة ؟!

فأجابها بالايجاب ، وشعر بشيء من الخجل فنهض منصرفا . ولكن بيروشكا قال :

ـ ان هذا لا يليق .

فاضطر للجلوس وشرب الانخاب مع العم بيروشكا ، ثم مع شقيق اولنكا ثم مع بيروشكا مرة اخرى . وهكذا . وكلما اقبل على الشراب

ازدادت آفاق نفسه تجهما ، وازداد الشيخان طربا وسرورا .

وتسلقت الفتاتان رف المدفأة ، فكان تهامسهما يصل الى ارض القاعة غامضا كخرير الماء . وعقل اولينين لسانه فلم يتكلم . وعكف على الشراب يريد ان يغرق فيه همه .

وفي نحو الساعة العاشرة ضاقت اولنكا بصخب الشيخين المعربدين فصرفت الجميع . ودعا الشيخان نفسيهما لاتمام السكر والعربدة في مسكن اولينين . وتوجهت اوستنكا الى بيتها . وعهد اولينين بالشيخين القوقازيين الى فانيوشا ليقدم لهما ما يطلبان من طعام وشراب .

ولمح اولينين السيدة اولنكا تخرج الى الحظــــيرة لتنظفها ، فبقيت ماريانكا وحدها في الكوخ . وعندئذ فارقه خموله وثبوط الهمة ، فأسرع الى الكوخ حيث وجد ماريانكا تستعد للنوم . فاتجــــه اليها وهم ان يتكلم ، ولكن الكلمات جفت في حلقه ، وتراجعت هي منه مذعورة ، فجلست فوق فراشها في ركن من الحجرة وحملقت فيه وجلة .

وكانت نظرة الخوف هذه كافية لاثارة الاسى والخزي في نفسه . ولكنه شعر الى جوار ذلك الخزي بخيلاء ، لانه كبر في وهم الفتاة بحيث تنهيبه وتخشاه على نفسها . وفك ذلك الزهو عقدة لسانه فقال لها :

ــ اي ماريانكا . ألا ترحمينني ؟ ألا ترين عجزي عن الافصاح عما يعتلج في صدري من لواعج هواك !؟

فأجفلت مبتعدة وقالت :

ــ لقد ذهبت الخمر برشدك ! ليس لك اليّ من سبيل !

ــ انت واهمة يا ماريانكا . فليس تأثير الخمر هو الذي أنطــــق لساني بهذا القول . ماريانكا ! لا تتزوجي لوكاشكا ! سأتزوجك انا ..

وثبتت فيه عينيها بنظرة جد لا اثر للخوف فيها ولم تجب .

ــ اي ماريانكا ! لقد اضطرب تفكيري وكاد يمسني الخبال مــــن فرط حبك . لم اعد املك زمام نفسي ! اخرجت امري واقتداري من يدي فليكن ما ترومين !

وبسط نحوها ذراعيه كالمتوسل . فقاطعته الفتاة وقد قبضت على ذراعه قائلة :

ـ ما هذا الهراء ! أتهذي ؟

ولم تدفع ذراعه عنها . بل تقلصت اصابعها القوية المخشوشنة على عضلاتــه :

ـ ومنذ متى كان السادة النبلاء يتزوجون بنات السوقة من القوقازيات؟

ـ لست أبالي ! تزوجيني !

فضحكت وقالت :

ـ ولوكاشكا ماذا نصنع به ؟

فجذب ذراعه من قبضتها ، واحتوى جسدها البض الفتى بكل قوته بين أحضانه . ولكن ماريانكا انفلتت من ذراعيه وفرت حافية القدمين الى مدخل الكوخ ناجية من النار .

وأفاق اولينين فهاله ما أقدم عليه . وأحس انه انزلق مرة اخرى في سلوكه معها الى الحضيض من الخساسة . ولكنه لم يشعر بشيء مــن الندم على اية كلمة مما قاله لها . وعاد الى كوخه . فلم يكترث بالشيخين العاكفين على الشراب والقصف ودخل مخدعه ، واستلقى على فراشــه وسرعان ما راح في سباق عميق .

- ١٦ -

المهرجان

ازدحمت شوارع القرية بالناس في مساء اليوم التالي ـ اذ وافق عيدا من أعياد القوقازيين ـ مرتدين الملابس الزاهية • وكانوا يعدون العدة لحملة بعد شهر ، لذا زادت حفلات الزواج •

وتجمع الناس في الميدان الكبير على كثب من حانوتين يبيع احدهما الحلوى ويبيع الاخر المناديل والمنسوجات المزركشة • وكنت ترى الشيوخ وهم جلوس على مصاطب دار الامن بستراتهم الرمادية المهيبة لا يزينها وشي من ذهب او خلافه ، اما حديثهم فكان عن المحصول والشباب والايام الخوالي وكان غالبا ما يتسم بالاتزان ، وكانوا يتطلعون في اعجاب الى الشباب ، واذا مرت النساء امامهم وقفن وأحنين الرؤوس • اما الفتيان فكانوا يرفعون قبعاتهم تحية واحتراما ، وبعض هؤلاء الشيوخ كان يرمق المارة في شراسة وجمود ، والبعض الآخر في رقة وعطف •

وراحت الفتيات يتحدثن ويتضاحكن بأصواتهن الصافية الرقراقة قبل ان يبدأن رقصتهن المشهورة التي يغنين وهن يقمن بها ، وقد تزينت كل منهن بصدار زاه وعصبت رأسها بمنديل يزيدها فتنة • اما صغار الصبية فكانوا يتصايحون ويلهون باللعب • وعكفت البنات الناضجات على الرقص والغناء •

اما الفتيان الذين لم يلتحقوا بالخدمة العاملة بعد والذين عادوا لمشاركة اهليهم في الابتهاج بالعيد فكانوا يسيرون متشابكي الايدي وكان منظرهم رائعا بستراتهم الجركسية البيضاء والحمراء الموشاة بالذهب •

وكانوا يمزحون مع كل جماعة من النساء او الفتيات يقابلونها ويغازلونها .

ووقف صاحب حانوت المناديل امام باب حانوته ــ وكان ارمنيا ــ في سترة انيقة ملفتة للانظار يترقب الزبائن ، حين اقبل رجلان ملتحيان من الحجن قادمين من وراء نهر ترك للتفرج على ما يجري في العيد ، وقد جلسا امام منزل صديق لهما يدخنان غليونيهما ويرمقان المارة ثم يتبادلان الحديث في لهجة سريعة .

وكانت أصداء الاغاني تتجاوب في شوارع القرية ، التي هجر جميع اهلها في ذلك اليوم منازلهم ، حتى العجائز منهم ، بعد ان نظفوها في اليوم السابق . وكانت السماء صافية الزرقة والهواء حارا وقد صبغ وهج الشمس قمم الجبال بلون وردي أخاذ . وبالجملة كانت القرية مجموعة من حشد زاخر مرح صاخب في ذلك اليوم .

وكان اولينين يأمل ان يرى ماريانكا في ذلك الصباح فأخذ يذرع الفناء غدوا ورواحا ، ولم يدر بخلده انها ارتدت ثوبا فاخرا وقصدت الكنيسة . واشتركت مع الفتيات في قزقزة اللب ، بيد انها كانت تقصد الدار بين الفينة والفينة ، ترمق فيها الساكن بنظرة كلها عطف واشراق . وخشي اولينين ان يحدثها وهي بصحبة زميلاتها ، مع انه كان يتلهف للافضاء اليها ببقية الحديث الذي حدثها به ليلة الامس ، وكان امله ان يحصل منها على رأي قاطع اذ لم يعد في مقدوره ان يتلظى بذلك القلق .

وبينما هو في تفكيره هذا اذ انطلق في اثرها ، ومر بناصية شارع كانت جالسة عندها ، ولكنه سمع الفتيات يتضاحكن من ورائه .

ولمح بيليتسكي ، من منزله الذي يطل على الميدان ، اولينين اثناء مروره فدعاه ، وتبادلا بعض الحديث ثم جلسا الى النافذة ، وبعد برهة وافاهما بيروشكا وجلس على الارض ، وقال بيليتسكي مبتسما وهــــو يشير الى جمع يزخر بالالوان الزاهية في ناصية الشارع :

ــ هاك الحسناء المعبودة ، هناك ، وحبيبتي أيضا ، أتراها ؟ انها ذات الرداء الاحمر القاني !

ثم صاح بالفتيات من النافذة :

ــ لماذا لا تشرعن في رقصتكن المشهورة ؟

ثم اردف :

ـ ينبغي ان نعد لهن حفلة رقص بمنزل اوستنكا عندما يسدل الظلام ستاره .

فقال اولينين في لهجة اليقين :

ـ لن تفوتني هذه الحفلة ، وسأذهب الى منزل اوستنكا ، ولكن نرى هل ستحضر ماريانكا ؟

فقال بيليتسكي دون ان تأخذه الدهشة :

ـ طبعا ستكون هناك !

ثم اشار الى الجمع المختلط وقال :

ـ حقا انه لمنظر خلاب !

فأمن اولينين على كلامه ثم قال :

ـ يهتم هؤلاء الناس بأعيادهم ويحرصون على ان ينعموا فيها بالمرح والسرور ، ويظهر ذلك جليا في عيونهم ووجوههم وحركاتهم وثيابهم ، بل الشمس والهواء والطبيعة تزهو جميعها احتفاء بالعيد . اما نحن في روسيا فلا نأبه بذلك !

ولم يعلق بيليتسكي على كلام اولينين بل وجه الحديث الى بيروشكا:

ـ لم لا تشرب يا صديقي ؟!

وغمز بيروشكا اولينين من طرف خفي مشيرا الى بيليتسكي قائلا :

ـ صديقك مزهو بنفسه .

ثم رفع بيليتسكي كأسه وشرب نخب الجميع فرد عليه بيروشكا :

ـ في صحتك .

ثم واصل حديثه ملتفتا الى اولينين :

ـ هل تظن هذه احتفالات بالاعياد ، رحم الله الاحتفالات في الايام الخوالي حيث كانت النساء يخرجن في ثياب موشاة بالذهب ، ويصففن أعناقهن بصفوف من النقود الذهبية ، ويغطين رؤوسهن بأوشحة من قماش مذهب ، كانت تهفهف بصوت يشرح النفس ويملؤها سرورا عندما كن يسرن . كانت كل واحدة تبدو وكأنها اميرة متوجة ، وكن ينطلقن زرافات صادحات بالاغاني ، ويمضين في اللهو طول الليل ، وأحيانا كانت

الاحتفالات تستمر ثلاثة ايام ، وكان الرجال يدحرجون برميلا يواصلون منه الشراب ، ولا أزال أذكر ابي حين كان يعود وقد صبغ الاحمرار وجهه وجسمه وفقد قبعته ، فاذا بلغ الدار ارتمى على فراشه ، فكانت امي تحضر له البطارخ الممتاز وتسعفه ببعض الجكير ليفيق ، ثم تهرع الى الخارج باحثة عن قبعته . هذه كانت الحال في الايام الخوالي .

وبعد ان انتهى بيروشكا من القاء هذه المحاضرات سأله بيليتسكي :

ــ وهل كانت الفتيات في تلك الايام يمرحن وحدهن ؟

ــ انك لا تتصور ! كان اذا اقتحم الفتيان حلبة الرقص ، تهم الفتيات اليهم بالهراوات يضربنهم ويضربن جيادهم ، ورغم ذلك كان الفتى ينجح في اختراق الحلبة ، ويأخذ الفتاة التي يحبها ثم يهرب بها ولا حرج عليه فقد شغفته حبا .

وفي تلك اللحظة أقبل لوكاشكا ونازركا ، كل يمتطي صهوة جواد نحو الميدان . وكان لوكاشكا ــ فوق جواده الكاباردي ــ يخطو بخفة متبخترا برأسه البديع ومعرفته الملساء ، وكان واضحا ان لوكاشكا لم يأت من مكان آمن او قريب ، تنبىء عن ذلك بندقيته وغدارته ، وكانت عيناه تتألقان ببريق الزهو والفخار ، كأنما كانتا تتكلمان بلغتهما وتقولان:

ــ هل لمثل هذا الفتى نظير !؟

وكان هو وجواده يسترعيان الانتباه ويلفتان النظر في الجموع المحتشدة . واذ صار لوكاشكا امام جمع من الشيوخ ، توقف ورفع قبعته البيضاء، وعندئذ ابتدرهما احد الشيوخ بالسؤال وهو عابس :

ــ كم سرقتما من جياد النوغاي ؟

فقال له لوكاشكا دون ان يلتفت اليه :

ــ هل أحصيتها ايها الشيخ حتى تسأل ؟

فازداد عبوس الشيخ ، وأردف قائلا :

ــ ما كان الامر ليقتضي ان تصطحب هذا الفتى معك !

فغمغم لوكاشكا :

ــ انصتوا الى ذلك الشيطان المتعجرف ، انه يعلم كل شيء .

وتملكه بعض القلق ولكنه لمح بعض الفتيات فيمم شطرهن ، وعندما

بلغهن حياهن ضاحكا •

فأجبنه بأصواتهن المرحة :

ـ طبت مساء يا لوكاشكا •• ايها الفتى المرح • هل جيوبك عامرة بالمال ؟ اشتر بعض الحلوى للفتيات • هل ستطيل المكث بيننا ، فقد انقضى زمن لم نرك فيه ؟

فأجاب لوكاشكا :

ـ حضرت انا ونازركا لنحتفل بالعيد •

وعندئذ قالت اوستنكا وهي تغمز ماريانكا منطلقة في الضحك :

ـ ما بالك يا ماريانكا !؟

ولكن ماريانكا لاذت بالصمت ، وجعلت ترمق الفتى بعينيها المتألقتين ، ثم قالت في لهجة جافة :

ـ حقا لم نرك منذ زمن بعيد ، ما بالك تدوس أقدامنا بجوادك ؟

ثم اشاحت عنه • وكان لوكاشكا بادي المرح ، ولكنه ما لبث ان انقبض صدره وقد اخذ برد ماريانكا الجاف • ثم عاد وهتف :

ـ اركبي فألوذ بك الى الجبال يا فتاتي •

وسار نحو ماريانكا وانحنى أمامها وهمس في اذنها :

ـ هل من قبلة تروي قلبي المتعطش !

وتلاقت عيونهما فاحمر وجهها وتراجعت ، ثم قالت :

ـ ما هذا ؟ ستسحق قدمي !

قالت ذلك وهي تنظر الى قدميها البديعتين في جوربهما الرائع المطرز وخفها المحلى بشريط فضي •

وحانت من لوكاشكا نظرة نحو اوستنكا ، بينما جلست ماريانكا بجوار امرأة معها طفل اخذ يعبث بعقد ماريانكا ، فأخرج لوكاشكا كيسا من الحلوى واللب ناوله لاوستنكا وقال وهو يبتسم لماريانكا :

ـ هذه الحلوى لكن جميعا •

وظهرت الحيرة والارتباك على وجه ماريانكا مرة اخرى ، وعندئذ قالت لها ام الرضيع :

ـ أولى بك ان ترحبي بالفتى •

ولم ينتظر لوكاشكا ، بل ضرب جواده بسوطه وقال وهو يبتعد :

ـ سأضع جوادي في الحظيرة ثم أعود انا ونازركا لنحتفل بالعيد طول الليل •

واذ وصل منزله استقبلته اخته ستبكا ، فطلب منها ان تأخذ الجواد الى الحظيرة وتطعمه دون ان تنزع سرجه •

وراحت البكماء تتكلم باشاراتها المعهودة مظهرة اعجابها بالجواد حتى انها طبعت قبلة على انفه وأخذ لوكاشكا يرقي درجات السلم ، وهو يثبت بندقيته وصاح مخاطبا أمه :

ـ كيف انت يا أماه ؟ لماذا لم تخرجي للآن ؟

وذعرت أمه للمفاجأة • فلم يدر بخلدها انه سيأتي ، حيث اشاع كبركا انه لن يحضر •

ـ الينا ببعض الجكير يا أماه ! ان نازركا في طريقه الينا لنحتفل بالعيد • فأجابت العجوز :

ـ سآتيك به في التو واللحظة يا بني ، ان الجميع يمرحون وكنت أحسب ان ابنتنا قد خرجت •

وبعد فترة وصل نازركا •

***

تناول لوكاشكا الكأس من يد امه ، وأفرغها في جوفه دفعة واحدة وهو يهتف :

ـ نخبك يا أماه !

وأقلق نازركا الحديث الذي فاه به الشيخ بشأن الجياد المسروقةفقال:

ـ كم أتوجس مما قاله العجوز بورلاك ، يخيل الي انه يعلم الامر !

ولكن لوكاشكا تظاهر بعدم المبالاة وقال :

ـ انها تخاريف العجائز ، ماله وشأننا ، لا بد ان الجياد قد عبرت النهر ومهمتك البحث عنها •

ـ ان كلام العجوز نذير شؤم •

ـ ما هذه الافكار السوداء ؟ ان كأسا من الجكير لهذا الشيخ تسوي

كل شيء ، علينا بالمرح ، اشرب لنلحق بالفتيات، شيئا من الشهد يا أختاه•
وعزم لوكاشكا ان يبقيا في القرية حتى يصيبا من المرح قـــــدر المستطاع ، وطلب من صديقه ان يوافيه ببعض الفودكا ونقده ثمنها •
فأسرع نازركا الى منزل يانكا لشراء الفودكا •
وعرج بيروشكا وبيرجوشوف على بيت لوكاشكا ، فطلب من أمه مزيدا من الشراب ، وعندما استقر المقام ببيروشكا قال فجأة :
ـ ما أبرعك في سرقة الجياد ايها اللعين ! كم انا معجب بك !
ـ معجب ولا شك ، ولذلك انت رسول المحبين في حمل حلواهم الى العذارى ••
ـ محض افتراء، لقد اراد ذلك الشاب ان يغرر بي، وأغراني ببندقية، وكان في مقدوري ان ألبي رغبته لولا حبي لك •• اين كنت يا فتى ؟
وتبادلا الحديث فكان لوكاشكا يجيب باقتضاب، وتدخل بيرجوشوف في الحديث مؤمنا على ما يقوله لوكاشكا فيما يختص بالجياد ، وعـــاد لوكاشكا يقول :
ـ كان يصحبني كرايخان الذي يذكر انه يعرف جميع المسالـــك والطرق ، ولكن لشدة الظلام ضل صديقي الطريق ، وأسقط في أيدينا ثم سمعنا نباح كلاب ، وبسرعة استولينا على الجياد ، على ان نازركا كاد يقع بين أيدي بعض النسوة من النوغاي •
وفي هذه اللحظة عاد نازركا بالفودكا واستمر لوكاشكا في حديثـه عن المغامرة :
ـ وعند عودتنا ضل كرايخان الطريق ثانية وكاد يوردنا مورد الهلاك•
فقاطعه بيروشكا قائلا :
ـ ولم لم تهتدوا بالنجوم والكواكب ؟
وهنا هتف بيرجوشوف :
ـ لقد اشرت انا الى هذا الرأي !
فعاد لوكاشكا يتم القصة قائلا :
ـ الكواكب ! والليل تلفه ظلمة حالكة ! لقد أعملت فكري وقدحت ذهني لنسلك الطريق الصحيح حتى انني امتطيت فرسا آخر وتركت جوادي

عله يهدينا الى الطريق ، وفعلا ــ لتوفيقنا ــ سار الجواد نحو قريتنـــا رأسا ، وكانت تباشير الفجر قد بدأت تنتشر في الافق فخفنا ان يفتضــح الامر ، وحضر احد الفتيان وساق الجياد مجتازا النهر •

وهز بيرجوشوف رأسه مؤمنا على ما قاله لوكاشا ، ووصفه بالبراعة ثم قال :

ــ طبعا حصلت على مبلغ طائل ثمنا لها !؟

فأجاب لوكاشكا :

ــ الثمن هنا في جيبي •

ولكنه أمسك عن الكلام ، اذ رأى أمه تدخل عليهم فصاح :

ــ علينا بالشرب ايها الرفاق •

وأراد بيروشكا ان يسرد قصة من أقاصيص ايامه الخوالي ولكـــن لوكاشكا قاطعه :

ــ أقاصيصك لا تنتهي ايها العجوز ••

ثم شرب كأسه وخرج •

- ١٧ -

تباشير الهناء

انطلق لوكاشكا الى الشارع وقد لف الليل القرية بسرباله ، وكانت الليلة هادئة رطبة الهواء ، وقد توج البدر الفضي قبة السماء فانعكست اشعته على الاشجار في منظر يأخذ الالباب ، والدخان يهرب من المداخن، وتنبعث الاضواء من نوافذ الدور ، وانتشرت في الجو رائحة الريف ، وتعالت الصيحات والاغاني فكانت اكثر جلاء في سكون الليل ، وتناثرت المناديل والقبعات كأنها النجوم السائرة .

والجمع المختلط من الشبان والفتيات يموج بالحركة في الميدان الفسيح يرددون الاغاني ، وقد أخذتهم نشوة المرح فراحت الفتيات يرقصن في حين تضبط احداهن اللحن ، لحن اغنية عاطفية .

اما العجائز من النساء فاكتفين بالانصات الى الاغاني ، والاطفال يركضون هنا وهناك في مرح الطفولة ، اما الشبان فكانوا يلاحقون الفتيات ، ويقتحمون عليهن حلبة الرقص .

ووقف اولينين وبيليتسكي على عتبة الباب يتحدثان في شبه همس ، وكانا في زيهما الجركسي يلفتان الانظار، وعلى كثب منهما كانت اوستنكا وماريانكا ، في ثيابهما البالغة الاناقة ، تدوران في حلبة الرقص ، وأراد الشابان تحين الفرصة لجذب الفتاتين اليهما ، وقد ظن بيليتسكي ان اللهو مقصد اولينين ، بيد ان هذا كان يفكر جديا في البت في مصيره ، كان يريد ان يقطع الشك باليقين في قبول ماريانكا الزواج منه ، ورغم انها

سبق ان اوضحت له رأيها من هذه الناحية من تعذر قبول ذلك لما بينهما من فوارق ، الا انه كان يأمل ان تفهم عاطفته على حقيقتها .

وأخذت بيليتسكي الدهشة عندما عرف ذلك وسأل اولينين :

ـ لِم لم تنبئني من قبل ، فكنت أجعل اوستنكا تدبر الامر ، يا لك من فتى !

ـ وما الذي يمكن ان تفعله اوستنكا ؟ كل ما أرومه الآن ان تأتي ماريانكا الى منزل اوستنكا .

ـ أرجو ان أوفق الى ذلك .

على انه تحدث اولا الى ماريانا قائلا :

ـ اين عقلك يا ماريانكا ؟ كيف تفضلين فتى تافها مثل لوكاشكا على شاب جميل مثل اولينين ؟!

ولكن ماريانكا لم تجب .

وعندئذ اقبل على اوستنكا ورجاها ان تعود الى منزلها مصطحبة ماريانكا ، وناشدها ألا تخيب رجاءه ، وفي هذه اللحظة انطلقت الفتيات في اغنية محببة .

وظهر لوكاشكا ونازركا وأخذا يتفحصان الفتيات ، وطفق لوكاشكا يغني ثم قال :

ـ هل تتقدم احداكن ؟!

فدفعت الفتيات ماريانكا نحوه ولكنها تمنعت ، واختلط الضحك والغناء بالقبلات والهمسات . ومر لوكاشكا امام اولينين فحياه تحية مودة ثم سأله :

ـ هل جئت تنشد مشاهدة الرقص ؟

ـ نعم .

وأسر بيليتسكي ببضع كلمات الى اوستنكا فقالت :

ـ لا مانع . سنأتي .

واقترب اولينين من ماريانكا وهمس :

ـ أتوسل اليك ان تأتي ولو لبضع لحظات ، لدي ما يهمني ان أفضي به اليك !

ـ اذا حضرت فتيات أخريات فسأحضر •
ـ أريد جوابا على سؤالي وأنت تمرحين الآن ؟
وأرادت ان تبتعد عنه ولكنه تبعها وعاود توسله :
ـ أرجوك ان تجيبي على سؤالي •
ـ اي سؤال ؟
ـ هل غاب عن ذهنك ؟ ألا تتزوجينني ؟
ولبثت ماريانكا لحظة تفكر •• ثم قالت :
ـ ستعرف جوابي الليلة !
ثم رشقت الشاب بنظرة حانية يتألق فيها بريق لم يعهده •
وقد ظل اولينين بعد ذلك يتبعها كالظل ، فقد كان يشعر بالسعادة تغمره في القرب منها ، واذ لاحظ لوكاشكا ذلك أمسك بيدها وجذبها الى وسط الحلقة فتشجع اولينين وقال لها :
ـ تذكري الحضور الى منزل اوستنكا •
ثم قفل راجعا الى صاحبه ، وعندما انتهت الاغنية تبادل لوكاشكا وماريانكا قبلة ، ولكن لوكاشكا اعترض قائلا :
ـ هذا لا يكفيني ! لا ارضى بأقل من عشر قبلات !
ثم شرع لوكاشكا يوزع الحلوى على الفتيات ، وحانت منه نظرة الى اولينين ، فقال يحدث الفتيات بقصد التهكم عليه :
ـ لتترك الحلقة من ترتمي على الجنود !
وتخاطفت الفتيات الحلوى ، وابتعد اولينين وبيليتسكي •
وقد اخذ لوكاشكا يهذي لفرط ما شرب وقال يخاطب ماريانكا :
ـ أجيبي يا حبيبتي ، هل تهزئين بي ؟ هل تحتقرينني ؟!
ثم طوق اوستنكا وماريانكا بذراعيه ، ولكن اوستنكا تخلصت منه ثم صفعته صفعة شديدة آلمت يدها • وتظاهر بأنه لم يغضب وسألها :
ـ هل من رقصة اخرى ؟
ـ أرقص مع من تشاء غيري ، سأعود للمنزل ، وترغب ماريانكا ان تأتي معي •

واذ سمع لوكاشكا ذلك ، انتحى بماريانكا مكانا خلف منزل وقال لها:
ـ لا ترافقيها الى منزلها يا ماريانكا ، لا تضيعي فرصة المرح ، هيا الى منزلك وسأحضر في اثرك !
فأجابت ماريانكا بلهجة ذات مغزى :
ـ ماذا أفعل في المنزل ؟ انما جعلت الاعياد للمرح ، وأنا سأذهب الى منزل اوستنكا ، لقد وعدتها .
ـ ستكونين زوجتي على اية حال ، ألا تقدرين ذلك ؟
ـ كل امر مرهون بوقته ، وسوف نرى عندما يحين الاوان !
ـ انت اذن مصممة على الذهاب ؟
ثم لان فاحتضنها ورشف قبلة عميقة .
ـ انك تضايقني ! اتركني .
وتخلصت من ذراعيه وانفلتت مبتعدة .
ولم يلبث ان عاوده الغضب فقال لها :
ـ لن ينتهي الامر الى خير ، ولسوف تندمين .
ونحى عنها ويمم شطر الفتيات الاخريات .
وأقلقها تهديده فرددت قائلة :
ـ ما ذلك الذي لن ينتهي الى خير ؟
ـ ذلك !
ـ أفصح ؟
ـ غرامك بالساكن عندكم وانصرافك عني .
ـ ان اهتمامي بقدر حبي ! لست ابي ، ولست امي ! انني اهتم بمن أشاء !
ـ حسنا ... ولكن تذكري جيدا !
وعاد الى الجمع وطلب من نازركا مزيدا من الشراب .
وسأل اولينين بيليتسكي :
ـ ترى هل تحضران ؟
ـ لا شك عندي في ذلك ، اسرع لنعد حفلة رقص .

***

كان قد انسلخ الهزيع الاكبر من الليل ، وخرج اولينين في اثـــر ماريانكا وأوستنكا . ولمح منديل الفتاة وكأنه نجمة مضيئة وسط الظلام، وقد اخذ القمر يتوارى تمهيدا للاحتجاب ، والضباب يكسو سماء القرية. وكان كل شيء ساكنا اذا استثنينا صوت أقدام الفتيات العائدات الى منازلهن .

وأخذ قلب اولينين يدق دقات متتابعة وينبض نبضا سريعا ، وقد لطف نسيم الليل من حرارة وجهه الملتهب . ورفع اولينين بصره الى السماء ثم تحول به الى المنزل الذي غادره وقد لفته الظلمة بعـد اطفاء الشموع ، فأخذ يبحث عن ماريانكا وأوستنكا ، وأحس بسعادة لا حد لها تغمره ، ونشوة دافئة محببة ، فهبط الدرج قفزا وأسرع نحو الفتاتين .

واذ شعرت اوستنكا بتتبعه لهما قالت له :

ــ ما هذا ايها الولهان ..! ماذا يكون لو رآنا احد ..؟

ــ خل عنك .

ولم يتمالك اولينين نفسه ان احتوى ماريانكا بين ذراعيه وأخـــذ يمطرها بقبلات حرى ، ولم تتمنع الفتاة ولم تقاومه .

وذهلت اوستنكا فقالت له :

ــ ما هذا ايها الغرير ؟ الا تشبع من تقبيلها ؟ تزوجها اولا ، ثم قبلها ما شئت .

ــ طابت ليلتك يا معبودتي ماريانكا ، لا تبوحي بشيء ، سأحضر غدا وأقابل والدك وأبسط له الامر .

فقالت ماريانكا في دلال سلب لب الفتى :

ــ ولماذا أبوح انا ..!؟

وأسرعت الفتاتان تركضان وتركتا الفتى غارقا في أفكاره الحالمة .. في كل ما حدث ، لقد انتحى بها جانبا وأخذ يحدثها هامسا :

ــ هلا تزوجتني ؟

فأجابت في مرح :

ــ قد تخدعني ، ولا تتزوجني !

ــ كلمة أريدها من فمك ! هل تحبينني ؟

فضحكت ماريانكا وأخذت تفرك يديه بيديها ثم قالت :

ــ ولِم لا أحبك ؟ انك لست قبيح المنظر ! ما أبدع يديك البضتين الناصعتي البياض .. انهما كالقشدة !

ــ انني لا ألهو ، بل اقول جدا ، أتقبلين ان تتزوجيني ؟

ــ لا أمانع اذا وافق ابي !

ــ جميل وعظيم ، ولكن اذا خدعتني طار صوابي وفقدت عقلي ، سأخطبك من والدك وأمك .

فانفجرت ماريانكا بالضحك .

ــ ما الذي يضحكك ؟

ــ يبدو لي الامر مضحكا !

ــ حقا ! وسأقتني كرمة ومنزلا وسأضم نفسي الى زمرة القوقازيين

ــ ولكن حذار من ملاحقة النساء ، فانني شديدة في ذلك لا أتهاون.

وكان اولينين يردد كلماتها وهو يستشعر عذوبتها . وقد أدهشه ان تظل على هدوئها وهي تتحدث معه . وخطر له ان حبها انبثق في تلك اللحظة ، وانها تنسج في خيالها المستقبل الذي ستعيش فيه .

وغمرته السعادة لانه لمس في كلماتها الصدق ، ووضح امامه موافقتها على الزواج منه ، وأخذ يناجي نفسه :

ــ ستفهمني عندما تصبح لي جسدا وروحا ، ان الكلمات لتعجز عن تصوير حبي ، ما عدت استطيع العيش هكذا ، سأبوح بكل شيء في الغد، لابيها وبيليتسكي وبيروشكا ، بل لاهل القرية جميعا .

اما لوكاشكا فقد أفرط في الشراب افراطا لم يحتمله ، بعد ان قضى ليلتين أرقا يتلظى. وقد عجزت ساقاه عن حمله فنام في منزل .. يانكا .

***

وما ان انبلج صبح اليوم التالي حتى كان اولينين قد قام من فراشه مبكرا عما تعود ، ولا عجب فأحداث الليلة الماضية بعثت في نفسه روحا جديدة ، وفكر فيما ينبغي ان يفعل .

واستعاد في ذهنه كل كلمة قالتها له ماريانكا وبخاصة عندما قالت :

«ما أجمل يديك الناصعتي البياض» ، واستشعر حلاوة وعذوبة قبلاته لها ، ففكر ان يتوجه في التو الى كوخ حامل العلم ليفضي اليه والـى زوجته بمكنون نفسه ، ويطلب اليهما الموافقة على زواجه من ماريانكا بل ومباركة هذا الزواج .

وطرق سمعه صخب وهرج في الشارع ، ولم تكن الشمس قد اشرقت بعد ، فكان الناس غادين او رائحين ، راجلين او فوق الجياد، وهم يطنون بالحديث كخلايا النحل . وارتدى اولينين سترته وخرج الى الباب ، وكان اهل الدار لا يزالون نياما ، فرأى خمسة من القوقازيين فوق جيادهـم يتقدمهم لوكاشكا ، وكانوا جميعا يتحدثون حتى كان من الصعب ان يفهم المرء ما يقولون ، وفجأة صاح واحد منهم :

ــ هيا نحو نقطة الحراسة الرئيسية !

وقال آخر :

ــ عليكم بالجياد وأسرعوا وراءنا !

ــ الباب الآخر أقرب .

فاعترض لوكاشكا وصاح :

ــ ما هذا التخبط ! ليس من سبيل سوى الباب الاوسط .

وفرض لوكاشكا نفسه على الجماعة في موضع القيادة ، فكان يلقي اليهم بالامر تلو الامر ، وقد صار وجهه احمر كالدم لفرط ما شرب في الليلة الماضية .

وعن لأولينين ان يستوضح جية الامر فأجابه احدهم :

ــ خرجنا للقبض على بعض الابركة ونحن في انتظار رفاقنا .

واكتمل عددهم بمرور الوقت وخطر لاولينين ان مـن الصواب ان يصحبهم ، فحمل بندقيته وامتطى جواده ، ولحق بهم فوجدهم يشربون الجكير ــ وكانوا قد اتوا به معهم ــ ولاحظ اولينين ان الجميع يدينون بالطاعة للوكاشكا بالرغم من انه لا يزيد عنهم رتبة .

ولم يأبه الجنود بأولينين ، فاقترب من حامل العلم ، وكـان دمث الخلق ، فعرف منه جلية الامر : ان الكشافين سعوا بحثا عن الابركة الذين كمنوا لهم وأخذوا يمطرونهم وابلا من الرصاص ، فبعث الكشافة فـي

طلب النجدة .

وأشرقت الشمس وامتدت المراعي ثلاثة فراسخ وراء القرية ، فلا ترى الا ارضا جرداء وقد ظهرت فيها آثار أقدام الماشية حول الكلأ الجاف ، وتبدو في الافق مضارب النوغاي كالحة المعالم .

كان السكون الشامل هو طابع هذه المراعي ، تشرق عليها الشمس ثم تغرب ، فكان يشمل النفوس شعور غريب بصفاء ذلك الجو .

ولم يقطع هذا السكون سوى وقع حوافر الجياد وصليلها ، الذي لا يلبث ان يهدأ ويخفت ايضا ، وشمل الصمت الرجال فكانوا لا يتحدثون الا قليلا ، ويحرص القوقازي ألا يصدر صوت من سلاحه فقعقعة السلاح عند القوقازيين عار .

وأقبل قوقازيان نحو السرية وهمسا الى رجالها . ولاحظ لوكاشكا ان جواده يتعثر فيحرن ، وكان ذلك نذير شر عند القوقازيين ، فلفت ذلك نظر الجماعة ثم لم يلقوا اليه بالا . اما لوكاشكا فكان يجذب العنان في غضب ظاهر وصبر نافد ، ويلوح بسوطه فوق رأس الجواد الذي كان يتوثب ، يقدم رجلا ويؤخر اخرى ، فينهال عليه لوكاشكا بسوطه مـرة ومرتين وثلاثا ، فيحرن الجواد غضبا ويبتعد عن الجياد ، فقال شيخ من القوقازيين :

ـ انه اسد في صورة جواد .

ومضى القوقازيون في سيرهم تبطىء جيادهم حينا وتسرع حينا حتى قطعوا في سيرهم نحوا من عشرة فراسخ لم تصادفهم خيمة من خيـام النوغاي سوى واحدة أقيمت على عربة ويرجح انها كانت في طريقها الى مكان آخر . ثم قابلوا امرأتين من النوغاي يبعث مظهرهما على الرثـاء بثيابهما الرثة وعظامهما البارزة ، تجمعان روث الماشية . وقد اراد حامل علم السرية ان يكلمهما فلم تفهما ما قاله ، ونظرت كل منهما للاخرى في دهشة وقلق .

ووافاهما لوكاشكا وحياهما فاطمأنتا اليه وأخذتا تحدثانه . ثم أشارتا اليه صوب جمع كبير من الابركة .

ولم تك قد مرت بأولينين تجربة من هذا النوع ، بل كانت كـل

معلوماته من الحكايات التي كان يلقيها اليه بيروشكا • فأراد ان يمارس ذلك بنفسه حتى تكون ملاحظاته على اساس صحيح •

على انه عندما قوبل بالجفوة من القوقازيين ، بعد ان حمل سيفه وبندقيته ، استقر رأيه على عدم مشاركتهم في القتال ، وهذا لا يتنافى مع اعتداده بشجاعته ، وكانت نبضات قلبه تنبىء بالسعادة •

وفجأة طرق الاسماع صوت طلقة بعيدة ، فنشط حامل العلم الى اصدار الأوامر ووضح الجهة التي يهجمون منها • ولكن القوقازيين لم يلقوا اليه بالا ، وانما تلقوا الاوامر من لوكاشكا الذي اتصف بالحزم ورباطة الجأش ، وحث جواده على الجري حتى سبق الآخرين وأخذ يدقق النظر امامه ثم توقف وقال :

ــ انظروا ! هناك رجل يمتطي صهوة جواد •

واتجه اولينين الى الناحية التي اشار اليها لوكاشكا فلم ير شيئا •

ولمح القوقازيون عن قرب فارسين ، فحثوا السير نحوهما •

وسأل اولينين :

ــ أهما من الابركة ؟

ولكن القوقازيين تجاهلوا سؤاله ولاذوا بالصمت، وبدا لهم انه سؤال تافه • فليس الابركة من البلاهة حتى يغامروا باجتياز النهر فوق جيادهم•

وأشار لوكاشكا الى فارسين ظهرا للعيان وصاح :

ــ هذا صديقنا زادكا ، انه يحيينا ، انه مقبل الينا !

واتضح انهما الكشافان القوقازيان •

واتجه الجندي الى لوكاشكا •

- ١٨ -

دعني وشأني

قال لوكاشكا :

ـ هل هما بعيدان عنا ؟

ثم دوت في الجو طلقة حادة على بعد خمسين خطوة ، فابتسم الجندي وأشار الى اتجاه الطلقة وقال :

ـ انه الصديق جوركا يطلق عليهم رصاصه •

ولمح الجند جوركا وهو قابع خلف تل صغير ، يحشو بندقيته ويناوش الابركة بطلقاته • وانطلقت رصاصة احدثت صفيرا حادا فشحب وجه حامل العلم وعراه الاضطراب ، وترجل لوكاشكا وسار صوب جوركا ، كما ترجل اولينين وتبع لوكاشكا • وما ان أصبحا امام جوركا ، حتى مرقت رصاصتان فوق رأسيهما ، فأشفق لوكاشكا على اولينين وحذره قائلا:

ـ أخشى ان يقتلوك ، من الخير ان ترحل ، ليس هذا مكانك •

على ان اولينين كان قد وطد العزم على مشاهدة الابركة ، وحانت منه التفاتة فاذا به يرى على بعد عشرات من الخطوات بنادق وخوذات تطل من وراء الربوة ، ثم رأى دخانا ومرقت بجواره رصاصة اخرى سمع لها صفيرا مدويا • وقد اختبأ الابركة وراء تل ، وتركز اهتمام اولينين على موقعهم ، ولدهشته تبين له انهم تخيروا مخبأ حصينا يلوذون به• فرجع لوكاشكا الى حيث ترك جواده وفي أثره اولينين • ثم قال لوكاشكا :

ـ ان لم نجد عربة دريس فمصيرنا القتل جميعا ! هناك عربة للنوغاي

محملة بالدريس •

وما ان سمع حامل العلم والجندي ذلك حتى اتيا بالعربة فاحتمى بها القوقازيون • ولكن اولينين ارتقى تلا صغيرا ليكشف منه كل ما يدور وسارت العربة تحمي القوقازيين ، اما الحجن ، وكانوا عشرة ، فقد جلسوا متلاصقين وكفوا عن اطلاق النار •

وخيم السكون لحظة ، قطعته اصوات الحجن ينشدون انشودة وطنية ، وكانوا يعلمون ان لا مفر من القتال ، فاستبسلوا وربطوا سيقانهم الى بعضها حتى لا يفكر بعضهم في النكوص ، وجعلوا ينشدون انشودة الموت ، وهو طابع يتميزون به في معاركهم •

وأخذ القوقازيون يقتربون محصنين انفسهم بالعربة ، واعتقد اولينين ان المعركة ستبدأ ، ولكنه لم يسمع الا انشودة الحجن ، وفي طرفة عين توقف النشيد وانبعثت طلقة اصابت العربة وعلت صرخات الحجن ، وتوالت الطلقات تصيب العربة ، ولكن القوقازيين أمسكوا عن اطلاق النار •

وانقضت لحظة اخرى ، ثم ارتفع صوت القوقازيين في صرخات مدوية وهم ينطلقون من العربة ، وكان لوكاشكا في مقدمتهم •

وسمع اولينين الطلقات ، ثم سمع الصراخ والانات كما رأى دخانا ودماء ، فترجل وجرى نحو القوقازيين في غير وعي ، وكان الرعب قد أفقده النظر فلم يتبين شيئا ولكنه أدرك الموقف المحزن •

اما لوكاشكا فقد غاض الدم من وجهه ، على انه تشبث بذراعي جريح من الحجن وصاح :

ـ ابقوا عليه ! أريده حيا !

اما هذا الحجني فكان هو الرجل ذو الشعر الاحمر الذي نقل جثة اخيه الذي قتله لوكاشكا • وكان لوكاشكا يشدد وثاق الحجني فتخلص هذا منه وصوب اليه مسدسه وأطلقه ، فسقط لوكاشكا والدم ينزف من أمعائه ، وحاول الوقوف ولكنه هوى ، وازداد تدفق الدم ، فهرع اليه بعض رفاقه لاسعافه ، وفكوا حزامه ، وانتاب نازركا ذهول فلم يدر ماذا يفعل ليسعف صديقه •

وقد مزق الرصاص الحجن بشعورهم الحمراء وشواربهم اربا ، والرجل الوحيد الذي نجا منهم هو الذي اطلق الرصاص على لوكاشكا ، وان كانت الجراح قد أثخنته في اكثر من موضع من جسمه ذلك لانه كان قد عقد العزم على الاستماتة في الدفاع عن نفسه ٠ فأمسك بخنجره متحفزا كأنه الاسد ، بينما كان الدم يسيل من وجهه ، وخدعه حامل العلم ثم باغته بطلقة في رأسه ، فترنح الحجني ثم هوى ٠

وجمع القوقازيون الاسلحة والجثث وهم لاهثوا الانفاس ، ونقل لوكاشكا الى العربة وهو لا يكف عن صب اللعنات ثم صاح :

ـ دعوني أخنقه بيدي !

ولكن قواه خارت فعجز عن الحركة ٠

أما اولينين فقد عاد الى داره ، ووصل الى علمه ان لوكاشكا في طريقه الى لقاء ربه ، وان واحدا من التتر قال ان في امكانه ان يشفيه بنوع معين من العشب ٠

وتزاحم النساء والاولاد ليروا الجثث التي نقلت الى القرية ٠

وكان الظلام قد خيم على القرية عندما عاد اولينين ، وعجز الفتى عن جمع شوارد ذهنه بعد الذي رأى ٠

وما لبثت الذكريات ان تدافعت في مخيلته ، فجلس الى النافذة ، وأطل ، فلمح ماريانكا في غدوها ورواحها بين الدار والحظيرة ، وقد يممت أمها شطر الكرمة ، وخرج ابوها الى المكتب ، فنفد صبر اولينين ولم يستطع الانتظار ، بل اندفع خارجا ليلقاها ، وكانت في الكوخ وظهرها اليه ٠ وظن اولينين انها لا تكلمه حياء ، فقال :

ـ حبيبتي ماريانكا ، اريد ان ادخل !

وكأنما قد بوغتت بكلامه ، فمحت اثر الدموع من عينيها ، وبدا وجهها اكثر جمالا وروعة في حزنها ، ونظرت اليه في صمت رهيب ٠

ولكن اولينين لم يحتمل ذلك فعاد يكلمها :

ـ معبودتي ماريانكا ٠٠ لقد حضرت ٠٠

ولكنها أجابته في رزانة :

ـ بالله عليك ، اتركني وشأني !

وظل وجهها جامدا • اما الدموع فقد تدفقت منهمرة من عينيها •

ـ لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ ماذا هناك ؟ ما خطبك ؟

ورددت كلمته الاخيرة :

ـ ما خطبي ؟ لقد قتل القوقازيون ، هذا هو الخطب •

فقال اولينين :

ـ تقصدين لوكاشكا ؟

ـ اغرب عن عيني ! ماذا تريد مني ؟

فدنا منها اولينين وهمس حالما :

ـ •• ماريانكا ••

ـ لن تنال مني مأربا !

ـ ماريانكا •• بالله لا تقولي ذلك !

ونفد صبر الفتاة ، فضربت الارض بقدمها وتقدمت منه مهـــددة وصاحت :

ـ أغرب عني ، انني اكرهك •

وارتسمت على وجهها صورة مجسمة للبغض والاحتقار والغضب مما جعل اولينين يعتقد ان لا امل له فيها ، وانه كان على حق حينما شعر في قرارة نفسه انه لا سبيل الى هذه الفتاة •

وكف اولينين عن محادثتها ، وترك الكوخ وخرج هائما على وجهه•

***

أثرت الصدمة في نفس اولينين حتى انه عندما عاد الى داره رقد في فراشه لا يبدي حراكا كأنه في غيبوبة • ثم طلب من قائد سريته ان ينقله ويلحقه بأركان الحرب ، وأخذ يعد العدة للرحيل الى حيث كانت تعسكر كتيبته من غير ان يودع احدا ، فأرسل فانيوشا لدفع الحساب لصاحب الدار • ولم يحضر لوداعه الا شخص واحد ، هو بيروشكـــا ، وشرب الاثنان كأسا ، ثم ثانية ثم ثالثة ، وحضرت العربة التي ستنقله يجرها ثلاثة من الجياد تماما كالعربة التي نقلته في موسكو ، ولكن شتان بين حاله وقتذاك والآن •

انه يحب ماريانكا الان اكثر مما أحبها من قبل ، ولكنه يعلم ان لا سبيل له اليها ، لذلك لم يعد بحاجة الى التفكير والمناجاة ، بل لم يفكر في حياة جديدة يحياها .

وخاطبه بيروشكا قائلا :

ـ الوداع يا عزيزي ، اذا توجهت في حملة فاجعل الحكمة رائدك وتذكر كلمات هذا الشيخ المحنك الذي يحدثك الان ، واذا كنت في غزوة ، ورأيت اطلاق النار ، فابتعد عن زحمة الرجال . فان الرعب يدفع الشباب الى التجمع ليأنس كل بالآخر ، ولكن العدو يختار هدفه في الزحمة ، وقد كانت هذه خطتي وهأنت ذا ترى انه لم يصبني جرح في حياتي ، وفوق كل ذي علم عليم .

وما ان انتهى من محاضرته حتى انبرى له فانيوشا ـ وكان يرتب الغرفة ـ قائلا :

ـ انني ارى اثر رصاصة استقرت في ظهرك !

ولكن بيروشكا أجاب فورا :

ـ انها أثر عزيز لمزاح قوقازي !

فأدهش ذلك اولينين وسأله :

ـ اني لا أفهم ! كيف حدث ذلك ؟

ـ اذن فاستمع : لقد كنا في مجلس نعب من الشراب ، فلعبت الخمر بالرؤوس ، واستخفت النشوة فانكا .. فلعبت اصابعه ، فكانت طلقة أصابتني في هذا المكان من جسمي !

فعاد اولينين يسأله :

ـ وهل سببت لك اذى ؟

ثم اردف فانيوشا :

ـ هل ننتهي من اعداد معدات السفر بسرعة ؟

ـ علام العجلة ايها الفتى ! دعني أروي القصة .. عندما انطلقت الرصاصة ، لم تصب العظم ، بل استقرت في موضعها فقلت له :

لقد قتلتني ايها الصديق ، ماذا اعددت لي . لن أدعك تفلت ، حق عليك ان تقدم لي ما يكفيني من الخمر !

فعاد اولينين يسأله مرة اخرى وهو شارد الذهن كأنه لم يسمع :
ـ ولكن هل سببت الاصابة اذى لك ؟
ـ انتظر حتى اتم قصتي . وأجابني الرجل الى طلبي فأحضر سطلا من الخمر شربناه ، على ان الدم ظل ينزف حتى روى ارض الغرفة فاستدرك العم بولاك قائلا : ان الفتى لا بد هالك ، عليك بزجاجة من النبيذ والا فمصيرك الى المحاكمة ! فأتوا بمزيد فشربنا ...
وعاد اولينين الى سؤاله :
ـ دعنا من كل ذلك ، هل آذتك الرصاصة ؟
ـ لقد أوذيت حقا ، وأرجوك الا تقاطعني فتقطع علي حبل القصة حتى أتمها . شربنا حتى الصباح التالي ، ثم نمت فوق الموقد وأنا في حالة من السكر بالغة ، وعندما استيقظت ، تبين لي اني عاجز عن ان انصب قامتي ..
فقال اولينين :
ـ هل كانت الاصابة مؤلمة ؟
ـ وهل قلت ذلك ؟ قلت انه لم يعد في مقدوري ان أنصب قامتي وانني لا استطيع السير .
وسأله اولينين وقد غلبه التأثر حتى استعصى عليه الضحك :
ـ وهل التأم الجرح ؟
ـ نعم، ولكن الرصاصة لا تزال في جسمي مستقرة، تحسس موضعها !
وكشف العجوز عن ظهره حيث ظهر موضع الرصاصة بجانب العظم. واستطرد يقول وهو يحرك الرصاصة وكأنها لعبة يلهو بها :
ـ تحسس ! انها تتحرك ، وهي الان مقلوبة !
وعاد اولينين يسأل :
ـ أيشفى لوكاشكا ؟
ـ الله أعلم ، ليس في القرية طبيب ، وهم يلتمسونه .
ـ وأين يمكن ان يلتمسوه ؟ في جروزنايا ؟
ـ كلا يا عزيزي ، ولو كنت انا القيصر لحكمت باعدام جميع الاطباء الروس ، فهم لا يفقهون شيئا ولا يجيدون سوى البتر ! ونظرة الى المواطن

باكلاشيف ، هل تسميه رجلا بعد ان بتروا ساقه !؟ أليس في هذا الدليل على جهلهم ! ما الذي يصلح له هذا الانسان الان ؟! لا يا عزيزي ، ان في الجبال اطباء بمعنى الكلمة. ولكي أدلل لك، أخبرك عن صديقي جيرشيك، وقد كان في حملة وأصيب في صدره ، وقرر اطباؤكم استحالة شفائه ، فجاء طبيب من اهل الجبال وشفاه ، ان خبرتهم بالاعشاب عظيمة .

فقاطعه اولينين اذ كان سيستمر في محاضرته قائلا :

ـ كفى هذا الهراء ! سأبعث له بطبيب من القيادة .

ـ ان ما تقوله هو الحمق بعينه ! تبعث له بطبيب ! يا لها من مهزلة ! أيفقه اطباؤكم في الطب شيئا ؟ ان عظماءكم هم الذين يلتمسون الشفاء عند اطباء الجبال ! اطباؤكم مخادعون ايها الفتى !

وفكر اولينين دون ان يتكلم ولكنه ايقن ان الدنيا خداع في خداع. ثم عاد يسأل :

ـ أتوجهت الى لوكاشكا ؟ كيف صحته الان ؟

ـ انه طريح الفراش كالمسجى ، لا يتناول طعامـــا ، وزاده شراب الفودكا ، ولا خوف عليه من ذلك . كم انا حزين من اجل ذلك . كم انا حزين من اجل ذلك الشاب ، انه رمز الشجاعة .. مثلي تماما .. لقـد أوشكت ان اموت في يوم من الايام ، وأخذت النسوة يصرخن ، وكان رأسي شعلة من النار ، وبلغ بهم الامر ان اخذوا يستعدون لدفني فوضعوا تحت رأسي ايقونة ، والتف حولي بعض الصبية يدقون الطبول ، فصرخت فيهم فازدادوا صخبا ، وحضر الكاهن . وقيل انني تدنست ، وانـــني عشقت النساء ومارست القتل وبالاختصار صادقت الشيطان ، وطلب مني ان اعترف فكنت أردد كلمة «انا مذنب» ، وسألني الكاهن عن قيثارتي التي وصفها «بالملعونة» ، وكنت قد أخفيتها . هل تدري ماذا حدث بعد كل ذلك ؟ لقد شفيت ! وعدت الى سابق حالي .. تجنب يا عزيـــزي مخالطة الناس تسلم ! انني أدعو لك من قلبي ، انني أحبك ، الشباب كله طموح . أنظر الى ما اصاب شابا روسيا كان يقيم هنا اورده طموحه موارد الهلاك اذ قتله رجل من الحجن البارعين في التصويب . لشد ما يفزعني أن يصرع الشبان الاعزاء . ان عادات جنودكم هي التي تهلكهم ، فهـم

يسيرون في جماعات ومن يموت منهم يترك ويحل محله آخر •• أليس هذا هو الجهل بعينه ؟ تذكر جيدا نصائحي يا عزيزي •

وهم اولينين متجها صوب الباب وقال :

ــ انني عاجز عن الشكر ايها الصديق الحميم ! الى الملتقى ، يشعر قلبي اننا سنلتقي بعد ذلك بمشيئة الله •

وأنصت اليه الشيخ وهو جالس على ارض الغرفة دون ان ينهض ثم قال :

ــ طريقة طريفة في توديع الناس ! بلاهة ولا شك ، لقد توثقت عرى الصداقة بيننا سنة بأكملها فتقول «وداعا» ثم ترحل ! انني أعزك يا فتى ، يعتصر الكمد قلبي من اجلك ، بل يجفوني النوم احيانا •••

وعاد اولينين يقول ثانية :

ــ الوداع يا صاح •

وعندئذ نهض بيروشكا ومد يده فسلم عليه اولينين في حرارة ثم استدار •• لكي يرحل •

وفي هذه اللحظة امسك بيروشكا رأس اولينين بكلتا راحتيه وقبله عدة قبلات ولم يتمالك نفسه فانخرط في البكاء وقال من بين عبراته :

ــ وداعا •• انني احبك •• وداعا •

واحتوت العربة اولينين •

ولكن الشيخ قال وهو لا يزال يبكي بكاء مرا في نبرة صادرة من أعماق قلبه :

ــ أحقا حانت ساعة الرحيل ••! أريد ان أذكرك بشيء •• اي شيء•• بندقية مثلا ، فلديك اكثر من واحدة !

فبادر اولينين وأجابه الى مطلبه ، وأهداه أحدى بندقيتيه •

ولكن هذا التصرف من جانب بيروشكا لم يعجب فانيوشا فقال بصوت ينم عن الاستياء والضجر :

ــ لقد أسبغت عليه الكثير ، ولكنه لا يقنع ! انه عجوز جشع ، ان هؤلاء القوقازيين غريبو الاطوار !

فصاح به بيروشكا مزمجرا :

ـ احفظ لسانك ايها المفتون ! يا لك من فتى ضنين !

وفي هذه اللحظة ظهرت ماريانكا خارجة من حظيرة البقـــر وألقت بصرها صوب العربة ، وأحنت رأسها تحية للساكن الراحل ، ثم واصلت سيرها نحو الكوخ •

واذ رآها فانيوشا غمز بعينه وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهـــاء وقال ••!

ـ الفتاة ••!

ولكن اولينين زجره بصوت صارم قائلا :

ـ سر ! وأسرع !

وكانت آخر كلمة نطق بها بيروشكا وهو لا يملك نفسه من التأثر :

ـ لن أنساك !

ونظر اولينين خلفه فرأى بيروشكا وماريانكا يتحدثان • وأغلب الظن انهما كانا يتحدثان عنه ، ولكن لم تنظر ماريانكا ولم ينظر بيروشكا ••• الى اولينين •

انتهت

هذا الكتاب

- حبيبتي ماريانكا ، أريد أن أدخل !

وكأنما قد بوغتت بكلامه ، فمحت أثر الدموع من عينيها، وبدا وجهها أكثر جمالاً وروعة في حزنها، ونظرت إليه في صمت رهيب ولكن اولينين لم يحتمل ذلك فعاد يكلمها:

- معبودتي مارينكا . . لقد حضرت . .

ولكنها أجابته في رزانة :

- با لله عليك ، اتركني وشأني !

وظل وجهها جامداً . أما الدموع فقد تدفقت منهمرة من عينيها .

- لماذا تبكين يا حبيبتي ؟ ماذا هناك ؟ ما خطبك ؟

ورددت كلمته الأخيرة :

- ما خطبي ؟ لقد قتل القوقازيون ، هذا هو الخطب فقال اولينين :

- تقصدين لوكلشكا ؟

- اغرب عن عيني ، ماذا تريد مني .

فدنا منها اولينين وهمس حالماً :

ونفذ صبر الفتاة ، فضربت الأرض بقدمها وتقدمت منه مهددة وصاحت .

- اغرب عني ، إنني أكرهك .. ! !



دمشق - مجمع فكتوريا التجاري - تلفون : ٢٢٣٢٣٢٦ - فاكس : ٢٢٤٨١٨٠ - ص . ب
بيروت - شارع مار الياس - تلفون : ٣٦٣٤٩٤ - ص . ب : ١١/٣٤٢٦

